المماليك المفترى عليهم (١)

شَجَرةُ الدُّر

قاهرة المُلوك ومنقذة مصر

♣♣♣♣♣

نور الدين خليل

♣♣♣♣♣

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٥/٥٩٨١
الترقيم الدولي
977-5245-43-5

الإهــداء

إلى شهداء الحروب الصليبيـة

القديمة والحديثـة

المماليك المفترى عليهم

تمهيد

تحاول هذه السلسلة (المماليك المفترى عليهم) إنصاف فئة من حكام مصر والشام ، ممن يطلق عليهم المماليك ، بعد مرور ما يقرب من ألف عام على دولتهم .

والحق أن التاريخ أهمل المماليك ، ولم يوفـّهم حقهم ، على الرغم من أعمالهم الباهرة ، وأياديهم المـُبهرة ، وإنجازاتهم الجبّـارة ، وسيرتهم السيّـارة .

ومن الحق كذلك أن المؤرخين ، القدماء منهم والمحدثين ، أهملوهم ولم يلتفتوا إليهم ، وانشغلوا عنهم بغيرهم ممن تسلطت عليهم أضواء الشهرة فى تلك الحقبة الحرجة من تارخ الأمة العربية والإسلامية سواء من المسلمين من أمثال صلاح الدين الأيوبى ونور الدين زنكى وقلج أرسلان وغيرهم ، أو من الصليبيين أمثال بوهمند وغيره ، أو الأوروبيين من أمثال ريتشارد قلب الأسد الإنجليزى والإمبراطور فريدريك الألمانى ولويس التاسع الفرنسى وغيرهم . وفى الوقت الذى تجد فيه المديح والإطراء على الخلفاء والأمراء ، فى مختلف الحِقـَب وشتى الدول ، كالأمويين أوالعباسيين أو الفاطميين أو الأيوبيين، لا نكاد نجد شيئا يذكرعن المماليك العظام ، الذين أسدوا للعرب والمسلمين ، بل وللإنسانية ، أجلّ ما يذكره التاريخ من أمجاد غابرة ، وروائع باهرة ، مما يرقى إلى ما قدمه غيرهم من الخلفاء والأمراء ، إن لم يزد عليه ، عندما تشتد الخطوب وتحدق الأخطار .

وفى الحق أيضا أن أغلب المؤرخين الغربيين ، من الحاقدين على الإسلام والمسلمين ، تفننوا فى تزييف التاريخ وحقائقـه وأحداثـه ، وعلى سبيل المثـال ، منهم من تعمد تجاهل شجرة الدر، وهى أول سلاطين المماليك ، واعتبر زوجها عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك ومنهم من يعزو هزيمة الجيش الفرنسى فى المنصورة إلى

وعورة الطرق لا إلى شجاعة المماليك وجنود مصر البواسل . ونشعر بالأسى والأسف لفئة من مثقفى العرب المتعالمين ، الذين اتخذوا ما كتابات الغربيين دليلا وهاديا لهم فى كتاباتهم ، ناسين أو متناسين أن الكثير من التواريخ الغربية مترجم عن مؤرخينا القدماء ، من أمثال أبو الفدا والمقريزى وابن كثير والطبرى والقلانيسى وغيرهم . بل ويعلمون يقينا صعوب النقل من اللغة العربية لغير ابنائها فضلا عن غيبة الأمانة والحيدة وتحريف الكثير منها .

ونقـول إن تناول التاريخ المملوكى وغيره من ماضى أمجاد مصر وأبطالها ، وهم كثير ، واجب قومى يتعين تيسيره للأجيال الصاعدة ، كي تتخذ من أبطاله مثلا يحتذى . فالأمم تقوم على سواعد أبنائها وعقولهم وضمائرهم ، وما لم تطلع أجيال المستقبل على الأمجاد الماضيه ، فمن أين تُستمَد الغيرة ، وتُستلهم العبرة ، وأنّى لتلك الأجيال أن تدفعها الحمية ، وإلى ماذا تتطلع ، إلاّ أن تنساق وراء الغث مما تحمله التيارات المضللة ، والمغريات المنحرفة ، والمُغويات المريضة ، وما يطلقون عليه من حضارة هي فى حقيقتها قشرة مادية لامعة تخفى وراءها خراب العقول ، وخواء الضمائر .

وما أحوجنا ، فى هذا القرن الحادى والعشرين الذى نشهده ، إلى أمثال المماليك العظام ليستردوا القدس الشريف السجين ، ويذودوا عن أطفال فلسطين ، ويحرروا أرض الإسلام والعروبة من نير الذل والعار، ويذيقوا الصليبيين الجدد كأسهم المعتقة التى ذاقها أجدادهم قبل ألف عام .

رمضان ١٤٢٥هـ / أكتوبر ٢٠٠٤م نور الدين خليل

♣♣♣♣♣

مقدمـــــة

♣♣♣♣♣

من هم المما ليك ؟

♣♣♣♣♣



١- ماذا نعرف عن المماليك ؟

"ويل للأموات من الأحياء". هذا مثل صادق فى كل زمان ومكان، ونوازع الشر طاغية فى الإنسان على نوازع الخير من قديم الأزل ، إلا من رحم ربى . فإنك لا تكاد تجد من يذكر المماليك وإنجازاتهم . وإنك لتبحث عنهم وعن أخبارهم فيما يتاح لك من مصادر، فلا تكاد تعثر على مرادك . وإنما يفاجئك جمهور العوام من الناس بتقطيب الجبين عند ذكر الـ "مماليك" وكأن هناك لعنة لحقت بهم ، أو مســا أصابهم .

وهناك من يصف بناء أهرامات فراعين مصر بأنه من أعمال السّخرَة والعبودية ، يتمثل فيها جبروت الفراعنة وطغيانهم من أجل بنـــاء هرم يدفن فيه الملك ، ويتناسى هؤلاء ما كان يكنّه قدماء المصريين من تبجيل وتعظيم لملوكهم ودياناتهم ومعابدهم ؛ وبالمثل ، هناك من لا يعرف عن المماليك سوى أنهم عبيد ، وفى أيامنا هذه تجد كثيرين يأنفون من ذكرهم ويزدرونهم ويتباكون على مصر أيام حكم المماليك . وتبلغ الأمور ذروة سخريتها عندما تسأل أحدهم عمّا يعرفه عن شجرة الدرمثلا ، فيردد من فوره "القباقيب" ، إشارة إلى الوسيلة التى قُـتـِل بها زوجها عز الدين أيبك ضربا "بالقباقيب" ، ولو سألته عمّا يعرفه عن شجرة الدر بخلاف تلك "القباقيب" فإنك لا تحظى منه بسوى الصمت ، أو اللجلجة . ولو سألته عمن فتح "عكا "، ينظر إليك فى بلاهة خبيثة ثم يتكلف الجدية ويتمتم فى لجاجة : عكا .. نابليون ..

هذه مجرد أمثلة عما لحق بالمماليك من ظلم الجهالة والجُهال . إن الشرق العربى والإسلامى فى حاجة ماسة لأن يعيد كتابة تاريخ هذه الفترة المملوكية الباهرة ، حتى تعود للأمة أمجادها الغابرة ، خاصة وأن أعداء الأمة الإسلامية قد بدأوا يستبيحونها فى الوقت الذي يرفعون فيه شعارات جوفاء ومقولات عرجاء عن حريات لا يفهمونها ، كحقوق الإنسان التى يتشدوق بها .

♣♣♣♣♣

٢- نشأة المماليك

تلقتهم الحياة عابسة ، ومدت إليهم يداً خشنة ، وشاءت أن تلطمهم فى طفولتهم ، فجردتهم من حنان الوالدين ودفء العائلة ، وأطلقت يد النخاسين تختطفهم من ذويهم وتلقى بهم من تاجر إلى آخر ، ومن مكان إلى غيره . وتتلاقى الوجوه البريئة مذعورة خائفة ، يمضون نهارهم وكأنهم قطيع ، وقد غرس فيهم الذعر طاعة عمياء ، وتلبية للأوامر خرساء ، إلى أن يغلبهم النوم فيفترشون الأرض ، ويتكور بعضهم على بعض .

وسرعان ما يعتادون خشونة الحياة ويألفون جفاءها ، وتمضى بهم الأيام سيرتها ، وبينا هم يشبّون عن الطوق تبتسم لهم الحياة ، ويشغلهم آمروهم أو مالكوهم فى المران والنزال ، والفروسية والقتال ، فيصبحوا فوارس وجنودا ، يعرفون أن سلطانا أو أميرا يملكهم ، وأن طاعته واجبة ، وعصيانه نائبه ، فهو الذى يعولهم ويعلمهم ، وله الفضل فيما هم عليه من شتى النعم .

ويروى لنا التاريخ متى بدأت تلك النخاسة ، يخبرنا أنها بدأت فى القرن التاسع الميلادى . فيستجلب أطفال اختطفوا أو غاب عائلهم فى الأسر أو فى الحرب ، من بلاد القوقاز أو التركستان أو غيرها ، كى يصبحوا جنودا مملوكين لمن اشتراهم . وكان أكثر السلاطين اقتناء للمماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠ – ١٢٤٩ م) الذى وجد فى ذلك وسيلة ناجعة لحماية سلطنته فى حروبه مع الصليبيين وفى صراعه مع أبناء عمومته من الأيوبيين . وتشاء الأقدار أن تستهل زوجته شجرة الدر دولة المماليك وتتربع على عرش السلطنة فى مصر لتصبح أول سلاطين المماليك ، والمرأة الوحيدة التى جلست على عرش السلطة على مدى التاريخ الإسلامى كله ، ثم أفسحت الطريق للمماليك ليحكموا مصر وسوريا وينشئوا دولتهم التى ولدت فى مهد المحنة ، وشبت فى أحضان الشدّة ، وترعرت فى ميادين القتال وساحات الصراع ، وتنامت وهى تذود عن الإسلام من طغيان الصليبيين والمغول .

كما يحدثنا التاريخ أن قصة المماليك بدأت فى بغداد فى عهد الخليفة العباسى المستعصم (٨٣٣ – ٨٤٢ م) وسرعان ما انتشرت فى أرجاء العالم الإسلامى . كما يروى لنا كيف تعلم المماليك انتزاع حقوقهم ورفاهيتهم اغتصابا ، واستغلال ما منحهم مالكوهم من سلطة عسكرية ليسيطروا على البلاد وعلى السلطات الشرعية ، إلى أن وقعت الخلافة نفسها بعد عهد المستعصم فى قبضة أمراء المماليك. على أن الخلافة ذاتها تواصلت رمزا للسلطة الشرعية ، أما السلطة الفعلية فكانت فى قبضة أمراء المماليك ، تعززها كتائب مملوكية أُتقِن تدريبها وتعليمها فباتت تدين بالولاء لقادتها . وبحلول القرن الثالث عشر الميلادى بلغت قوة المماليك ذروتها وأحكموا قبضتهم على البلاد فى كل من مصر وسوريا ، وكذلك الهند التى لابد للسلطان فيها من أن يكون بالضرورة من المماليك أو من ورثتهم .

٣ - العبيد فى مختلف الحضارات

وعلى ذلك ، فالمماليك هم آدميون يملكهم آدميون آخرون ، ولفظ المماليك أخف وطأة من لفظ العبيد أو الأرقاء ، وهى مصطلحات كان رجال الفكر، فى غابر الزمان ، لا يرون فيها إهانة أوازدراء ، وإنما كان العبيد يمثلون فئة فى مجتمع الواقع المتفق عليه آنذاك . ونورد فيما يلى نبذة عن نظرة الفلاسفة والحضارات للعبيد :

أرسطو:

كان يرى أن بعض الناس قد خلقوا للعبودية لأنهم يعملون بأيديهم كالآلات ، ويديرهم المفكرون الأحرار.

أفلاطون: (وهو أستاذ أرسطو) :

نادى فى جمهوريته الفاضلة *Utopia* بحرمان العبيد من حق المواطنة ، وإجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار سواء من أسيادهم أو من الأسياد الغرباء عنهم

الحضارة اليونانية :

أباحت وشرعت نظام الرق فى شكليه العام والخاص

اليهوديـة :

أباحت الرق والعبودية ، إذ كان واسع الإنتشار فى العالم المعروف آنــذاك .

المسيحيـة :

سارت على نهج اليهودية فأباحت الرق ولم تحرمـه وأمرت العبيد بالطاعة لأسيادهم كما يطيعون المسيح . وجاء فى العهد الجديد من الكتاب المقدس :

"أيها العبيد! أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعـدة فى بساطة قلوبكم كـما للمسيح" (الرسالة إلى أهل افسس٦ : ٥)

الإســـلام :

الإسلام هو النظـام الدينى الوحيد الذي لم يبح الرق ، وتـنص شريعتـه على أن العتق كفـارة للذنوب ، وتنص قلبا وقالبا على الكثير من المنافذ التى تؤدى إلى التخلص من هذه الظاهرة القديمة . وورد عتق الرقيق (تحرير الرقبة) فى القرآن الكريم فى أربع كفارات : القتل الخطأ واليمين الكاذب والظـهار ، ثم تتويجا للسعى فى الحياة على إجمالها :

١- "ومن قتل مؤمنا خطأ فتحريررقبة مؤمنة " (٤ . ٩٢)

٢- "لا يؤاخذكم الله باللـغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتـم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ..." (٥ : ٨٩)

٣ - "والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ..." (٥٨ : ٣)

٤ – " فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبـة * فك رقبـة * أو إطعام فى يوم ذى مسغبـة ... " (٩٠ : ١١- ١٤)

٤- الإمام العزعزالدين عبد العزيز بن عبد السلام

على أننا نورد بتصرف حادثة ذكرت فى كتاب "أئمة الفقه التسعة" لعبد الرحمن الشرقاوى فى مصرمع المماليك ، أيام الملك الصـالح نجم الدين أيوب ، المراد منها إلقاء الضوء على المماليك قبل أن يعظم شأنهم ، وقبل سنوات قلائل من قيـام دولتهم :

> كان الإمـام العزعزالدين بن عبد السلام قاضى القضاة فى دمشق، ليس هنـاك من هو أفقه منه فى زمانه ، وتحالف الصـالح إسماعيل مع الصليبيين ، وسلمهم مدينـة صـيدا وبعض المـدن الأخـرى فـى فلسطين وقلعـة الشـقيف فقاومـه الإمـام عزالـدين واعتلـى المنبر وأعلن خيانـة سلطان دمشـق ومـن والاه من أمراء الشـام ، وحرض النـاس على خلـع طاعتـه ، وانضم إليه الشيخ ابن الحاجب وأصدرا فتوى بخيانة السلطان وخلـع طاعته . وانتهى الأمر بالإمـام عزالدين إلى مغادرة دمشق وحل بمصـر ، حيث استقبله الملك الصـالح نجم الدين أيوب وأكرم وفادته وعينه إماما وخطيبا لجامع عمرو . وسرعان ما عيّنه قاضيا للقضاة .
>
> وما لبث الشيخ أن لاحظ أن أمراء مصـر وقـادة الجـيش مـن المماليـك الأرقـاء ، اشـتراهم السـلطان صـــغارا وتعلمــوا اللغــة العربيــة وعلــوم الــدين الإســلامى، وليســوا أحــرارا ولــيس لهــم حقــوق الأحـرار، ومـن ثـم لـيس لهـم أن يتزوجـوا حرائـر النسـاء ، ولا يحـق لهـم البيـع والشـراء والتصـرف كالأحرار وإنما كما يتصرف العبيد .

وانـزعج السـلطان واضـطربت الأمورمـع المماليك ، فهجرت الزوجات فراش الزوجيـة، وتراجع التجار عن صفقاتهم مع المماليك ، وراح الصـبية ينـادون أمـراء المماليك فـى الطرقـات بالعبيد برغم الهيبة والمنصب .

ويورد السيوطى فى "حُسنْ المحاضرة" تلك الأوضاع قائـلا:

> تصـدى الشـيخ عزالـدين لبيـع أمـراء الدولـة من الأتراك ، وذكرأنـه لـم يثبت عنده أنهم أحرار وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مـال المسـلمين، فعظـم الخطـب عنـدهم والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا، وتعطلت مصـالحهم لـذلك ، وكـان مـن جملـتهم نائب السلطنة ، فاستثارغضبا ، فـاجتمعوا وأرسلوا إليـه فقال الشيخ: نعقد لكم مجلسـا وننـادى علـيكم بالبيـع لبيـت مـال المسلمين . فرفعوا الأمر إلى السلطان ، فبعث إليـه فلـم يرجـع ، فأرسـل إليـه نـائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه ، فـانزعج النائب وقـال: كيـف ينـادى علينـا هـذا الشـيخ ونحـن ملـوك الأرض؟ والله لأضـربنه بسيفى هـذا. فركـب بنفسـه فـى جماعتـه وجـاء إلـى بيـت الشـيخ والسيف مسلول فى يده ، فطرق الباب، فخرج له ولد الشيخ فرأي من نائب السلطان مـا رأى وشرح لـه الحال ، فما اكترث لذلك وقـال: يـا ولدى ، أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله. ثم خرج فحين وقع بصره على النائب، يبست يد النائب، وسقط السيف منها، وأرعدت مفاصله فبكـى وسـأل الشيخ أن يـدعو لـه ، وقـال : يـا سيدى ايش تعمل ؟ فقال الشيخ: أنـادى عليكم

وأبيعكم ويحصل عتقكم بطريق شرعى . فسأل النائب : فيم تصرف ثمننا ؟ فقال : فى مصالح المسلمين. فسأل النائب: ومن يقبضه؟ فرد الشيخ: أنا .

وانصرف النائب وأخبر السلطان الذى رفض ذلك البيع . لكن الشيخ أنكرتدخل السلطان فى القضاء ، وجمع أمتعته وأهل بيته ، ووضعهم على حمير ، وعزم على الرحيل . ورافقته جموع حاشدة باكية متوعدة ، وكاد الأمر أن يصير إلى ثورة . وأسرع السلطان على فرسه وشق الجموع الغاضبة وتلطف مع الشيخ قائلا : لا تفارقنا . عُدْ يا إمام واصنع ما بدا لك.

وعاد الشيخ وسط تهليل الحشود ، وجمع السلطان المماليك وأمراء القلعة وعرضوا فى مزاد ونادى الشيخ عليهم وغالى فى ثمنهم ، إلى ان امتنع الحاضرون عن المزايدة ، فتقدم السلطان ودفع ثمنهم من ماله الخاص واشترى جميع أمراء المماليك وأعتقهم، فأصبحوا أحراراً .

حدث ذلك قبل سنوات قلائل من قيام دولتهم ، وربما كان ذلك من بين العوامل التى جعلتهم يسارعون إلى اغتيال توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ووريثه ، وتنصيب شجرة الدر سلطانة (أم خليل)عقب وفاة نجم الدين أيوب ، وإن كانت هناك عوامل أخرى دفعتهم إلى ذلك . ومن استقراء تاريخ المماليك من اليسير أن نلاحظ أن لم يكن هناك نظام موضوع أو عرف متبوع لتولى السلطنة فيما بينهم ، وإنما كان الأقوى هو الذي يجلس على عرش السلطنة ، بعدما تتوفر له القوة اللازمة لإنتزاع السلطة من

السلطان القائم على حكم البلاد ، كما سنرى فى الصفحات التالية عند الحديث عن قيام دولة المماليك .

٥ - دولة المماليــك

ولقد تواصلت دولة المماليك فى مصر وسوريا لأكثر من قرنين ونصف من الزمان ، يحددها المؤرخون بفترة مقدارها ٢٦٧ سنة ، تعاقب عليها ما لا يقل عن ٤٥ سلطانا من المماليك ، وأفلح البعض منهم فى إنشاء أسر حاكمة ، أشهرهم السلطان قلاوون الذى حكم فى الفترة من ١٢٧٩ إلى ١٢٩٠م ، وحكمت ذريته بفترتى انقطاع حتى سنة ١٣٨٢م . وبعد الإنتصار المملوكى على المغول فى معركة عين جالوت الشهيرة عام ١٢٦٠م بقيادة السلطان قطز، استولى بيبرس الأول على السلطة ، وهو بحق المؤسس الحقيقى لدولة المماليك ، إذ نشط فى حروبه ضد بقايا الصليبيين ونجح فى القضاء عليها فى فلسطين وسوريا ، وحكم حتى عام ١٢٧٧ م .

وتشاء الأقدار أن تبتسم الحياة للمماليك بعد سابق عبوسها الأول ، وتجعل منهم قادة عظاما تحقق على أيديهم أعظم إنجازات عصرهم ، من طرد الصليبيين من الشرق ، إلى صدّ الإجتياح المغولى الذى لم يقف فى طريقه أي حاكم فى أي بقعة من أقاصى الشرق وحتى حدود مصر وأوروبا ، أي القارة الآسيوية بكاملها وشرق أوروبا على وجه التقريب ، واستحقوا بذلك جميل الأمة الإسلامية والعربية وعرفانها . لقد أنقذ المماليك الحضارة الإسلامية والعربية من الدمار.

ليس هذا وحسب ، وإنما احيوا الخلافة التى قضى عليها المغول عام ١٢٥٨م ، ونصبّوا خليفة تحت رعايتهم فى القاهرة ، وأصبحوا أوصياء على حكام المدن المقدسة ، مكة المكرمة والمدينة المنورة . ولم تكن انتصاراتهم العسكرية الباهرة لتتحقق لولا تشجيعهم وتقويتهم للإقتصاد، وتبنيهم للصناعات والحِرَفْ ، وكانوا حريصين على أن تبرز مصر كمركز للطريق التجارى الرئيسى وللتجارة العابرة بين الشرق وبلدان البحر المتوسط .

على أنه لكل بداية نهاية ، ولكل هدف غاية . فقد بدأت هذه الشعلة المملوكية المضيئة تخبو شيئا فشيئا بعد وفاة الملك الناصر (١٢٩٣ – ١٣٤١م) ، إذ لم يجد المماليك من يخلف الملك الناصر فى قوته وعظمته ، وسرعان ما انطفأت تلك الشعلة المملوكية وذهب ضوؤها عام ١٥١٧م عندما هزم السلطان سليم الأول العثمانى السلطان المملوكى طومان باي فى معركة الريدانية القريبة من القاهرة ، وذلك بعد أن هزمهم أيضا فى معركة مرج دابق شمالى حلب عام ١٥١٦م . وهكذا انتهت دولة المماليك كقوة عسكرية وسياسية

على أن بقايا المماليك من الأمراء الأقل شأنا وعائلاتهم وذويهم استمروا يعيشون فى مصر بلا فعالية حقيقية ، لا يكاد يرد لهم ذكر فى صفحات التاريخ ، حتى أواخر القرن الثامن عشر ، عندما هبط نابليون فى مصر ، وظن بقايا المماليك أنهم قادرون على التصدى له . ويعرف دارسو التاريخ أنه بعد رحيل الحملة الفرنسية من مصر، تولى محمد على باشا الحكم . وهكذا عاودت الحياة عبوسها للمماليك كما فعلت بادئ الأمر فى طفولتهم ، فقضى عليهم محمد على باشا (١٨٠٥ - ١٨٤٨ م) فى مذبحة القلعة الشهيرة

واعتاد المؤرخون على تقسيم فترة حكم المماليك إلى قسمين ، المماليك البحرية (١٢٥٠– ١٣٨٢م) وسموا بالمماليك البحرية لإقامتهم بجزيرة الروضة فى نهر النيل (أو بحر النيل) ، والمماليك البرجية (١٣٨٢– ١٥١٧م) وهم الذين أقاموا فى برج القلعة بالقاهرة

♣♣♣♣♣

٦ - المماليـــك البحريـة

سلاطين المماليك البحرية	فترة السلطنـــة
٠١- شجرة الدر (سلطانة)	١٢٥٠م
٠٢- أيبـك (المعز عزالدين)	١٢٥٠- ١٢٥٧م
٠٣- على بن أيبك (المنصور نورالدين)	١٢٥٧- ١٢٥٩م
٠٤- قطـز (المظـفـر سيف الدين)	١٢٥٩- ١٢٦٠م
٠٥- بيبرس الأول البندقدارى (الظاهرركن الدين)	١٢٦٠- ١٢٧٧م
٠٦- بركة خان (السعيد بن الظاهر بيبرس)	١٢٧٧- ١٢٧٩م
٠٧- سلامش (العادل بدرالدين بن الظاهربيبرس)	١٢٧٩م
٠٨- قلاوون (المنصور سيف الدين)	١٢٧٩- ١٢٩٠م
٠٩- خليل (الأشرف صلاح الدين بن قلاوون)	١٢٩٠- ١٢٩٣م
١٠- الناصر محمد (بن قلاوون)	١٢٩٣- ١٢٩٤م
١١- العادل كتبغا (العادل زين الدين)	١٢٩٤- ١٢٩٦م
١٢- المنصور لاجين (المنصور حسام الدين لاجين)	١٢٩٦- ١٢٩٩م
الناصر محمد بن قلاوون (مرة ثانية)	١٢٩٩- ١٣٠٩م
١٣- بيبرس الثانى الجاشكير(المظفرركن الدين)	١٣٠٩- ١٣١٠م
الناصر محمد بن قلاوون (مرة ثالثة)	١٣١٠- ١٣٤١م
١٤- أبوبكر بن الناصر محمد (المنصورسيف الدين)	١٣٤١م
١٥- كوجك بن الناصر محمد (الأشرف علاء الدين)	١٣٤١- ١٣٤٢م
١٦- أحمد بن الناصر محمد (الناصر شهاب الدين)	١٣٤٢م
١٧- إسماعيل بن الناصر محمد (الصالح عماد الدين)	١٣٤٢- ١٣٤٥م
١٨- شعبان الأول بن الناصرمحمد(الكامل سيف الدين)	١٣٤٥- ١٣٤٦م

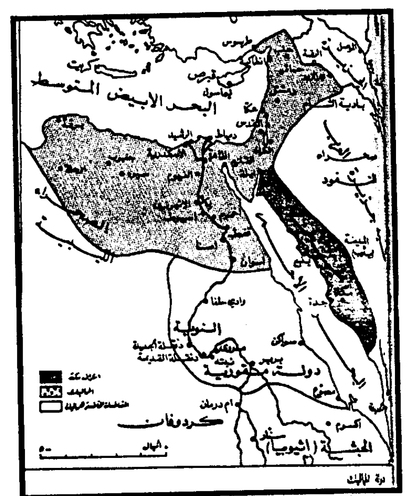
١٩- حاجى الأول بن الناصر محمـــــد ١٣٤٦- ١٣٤٧م
٢٠- الحسن بن الناصر محمد (الناصر) ١٣٤٧- ١٣٥١م
٢١- صالح بن الناصرمحمد (الصالح صلاح الدين) ١٣٥١- ١٣٥٤م
الحسن بن الناصر محمد(الناصر) (مرة ثانية) ١٣٥٤-١٣٦١م
٢٢- محمد بن حاجى (المنصور صلاح الدين) ١٣٦١- ١٣٦٣م
٢٣- شعبـــان الثانـــى (الأشرف ناصر الدين) ١٣٦٣- ١٣٧٧م
٢٤- على بن شعبـــان (المنصور علاء الدين) ١٣٧٧- ١٣٨١م
٢٥- حاجـــى الثانـــى (الصالح صلاح الدين) ١٣٨١- ١٣٨٢م

٧ - المماليـــك البرجيّـــة

سلاطين المماليك البرجية	فترة السلطنـة
٢٦- برقوق (الظاهر سيف الدين)	١٣٨٢- ١٣٩٨م
٢٧- فرج بن برقوق (الناصر)	١٣٩٨- ١٤٠٥م
٢٨- عبد العزيز بن برقوق	١٤٠٥م
فرج بن برقوق (مرة ثانيـة)	١٤٠٥-١٤١٢م
٢٩- الشيخ المحمودى (المؤيد أبو النصر)	١٤١٢- ١٤٢١م
٣٠- أحمد بن شيخ (المضفر)	١٤٢١م
٣١- الظاهر طـطر	١٤٢١م
٣٢- محمد بن طـطر (الصالح)	١٤٢١- ١٤٢٢م
٣٣- برسـباى (الأشرف سيف الدين)	١٤٢٢- ١٤٣٨م
٣٤- يوسف بن برسباي (العزيز جمال الدين)	١٤٣٨م
٣٥- جقمق (الظاهر سيف الدين)	١٤٣٨- ١٤٥٣م
٣٦- عثمان بن جقمق (المنصور فخر الدين)	١٤٥٣م

٣٧- إينال العلانى (الأشرف سيف الدين)	١٤٥٣- ١٤٦٠م
٣٨- أحمد بن إينال (المؤيد شهاب الدين)	١٤٦٠- ١٤٦١م
٣٩- خشقدم (الظاهر سيف الدين)	١٤٦١- ١٤٦٧م
٤٠- بلباي المؤيدى (الظاهر سيف الدين)	١٤٦٧- ١٤٦٨م
٤١- تمريغا (الظاهر)	١٤٦٨م
٤٢- قايتباي (الأشرف سيف الدين)	١٤٦٨- ١٤٩٥م
٤٣- محمد بن قايتباي (الناصر)	١٤٩٥- ١٤٩٦م
٤٤- قانصوه (الظاهر)	١٤٩٧م
محمد بن قايتباي (ثانى مرة)	١٤٩٧- ١٤٩٨م
٤٥- قانصوه (الأشرفى)	١٤٩٨- ١٥٠٠م
٤٦- جنبلاط (الأشرف)	١٥٠٠- ١٥٠١م
٤٧- طومان باي الأول (العادل)	١٥٠١م
٤٨- قانصوه الغورى	١٥٠١- ١٥١٦م
٤٩- طومان باى الثانى (الأشرف)	١٥١٧م

♣♣♣♣♣



دولة المماليك ، حوالى ١٣٥٠م

الفصل الأول

*****

عَصْرُ شَجَرةُ الدّر
خلفيّة تاريخيّة

*****

أولا ـــ الحملات الصليبية

فى عام ١٠٩٥م وقف البابا إيربان الثانى فى مدينة كليرمونت الفرنسية أمام جموع حاشدة تنتظر ما روج له من أهمية بالغة ، وإذا به يطلق صيحته الشهيرة التى دعا فيها إلى حمل الصليب والتوجه شرقا لتحرير الأرض المقدسة وقبر المسيح من أيدى الكفرة المسلمين ومناصرة مسيحيي الشرق فى العالم المسيحى الأرثوذكسى واعدا من يأخذ الصليب ، أي يضع صورة الصليب على ملابسه ويخرج ، بالغفران من الخطايا .

خطاب البابا إيربان الثانى فى مؤتمر كليرمونت

يا شعب الفرنجة! شعب الله المحبوب المختار! لقد جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنسا لعينا أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى فى تلك البلاد بلاد المسيحيين ، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب وبالحرائق، ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم ، وقتلوا بعضهم الآخر بعد ان عذبوهم أشنع تعذيب ، وهم يهدمون المذابح والكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان فانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها فى شهرين كاملين .

على من تقع تبعة الإنتقام لهذه المظالم ، واستعادة تلك الأصقاع ، إذا لم تقع عليكم أنتم - أنتم يامن حباكم الله أكثر من أي قوم آخرين بالمجد فى القتال وبالبسالة العظيمة وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون فى وجوهكم ؟

ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوى قلوبكم ، أمجاد شارلمان وعظمته ، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم - فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا .

الضريح الذى تمتلكه الآن أمم نجسة ، وغيره من الأماكن المقدسة التى لوثت ودنست - لا تدعوا شيئا يقعد بكم من أملاككم أو من شؤون أسركم ، ذلك بأن هذه الأرض التى تسكنونها الآن والتى تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقمم الجبال ، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين ، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيكم من الطعام ، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضا ، ويلتهم بعضكم بعضا ، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم فى الحروب الداخلية .

طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد ، واقضوا على ما بينكم من نزاع ، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس ، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم ، إن أورشليم أرض لا نظير لها فى ثمارها ، هى فردوس المباهج إن المدينة العظمى القائمة فى وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها ، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم وثقوا أنكم ستنالون من أجل ذلك مجدا لا يفنى فى ملكوت السماوات .

(قصة الحضارة لول ديورانت ١٥ / ١٥-١٦)
(الترجمة العربية بقلم محمد بدران)

واشتعل الحضور هتافا "الرب يشاؤها ... الرب يشاؤها". وعلى الفور انطلقت الحشود ، سواء منهم الفقراء المعدمين المتلهفين إلى أرض اللبن والعسل ، أو أمراء الإقطاعيين المفلسين الذين حرمهم نظام توريث الإبن الأكبرمن اقتناء الإقطاعيات . ولاحقا خرج الملوك والأباطرة بجيوشهم الجرارة ، طوعا أوكرها ، انصياعا لأوامر الباباوات أوإشباعا لأطماع خاصة ، أو تشفيا لأحقاد دفينة.

وأفلحت الحملات الصليبية ، وقامت فى الشرق بضع ممالك صليبية: الرها والقدس وطرابلس وعكا وأنطاكية . ودامت الحروب الصليبية طوال ما يقرب من ثلاثة قرون إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبى ليتوج جهود من سبقوه من قادة المسلمين الذين مهدوا له طريق توحيد العالم العربى الإسلامى ، فقضى فى الواقع على الوجود الصليبى فى الشرق ، عدا مملكتى عكا وأنطاكية ، وتوارث أبناؤه الإمبراطورية الأيوبية الشاسعة وكان آخرهم الملك الصالح نجم الدين أيوب ، زوج شجرة الدر. الذى يصفه المؤرخون بأنه أحسن الأيوبيين .

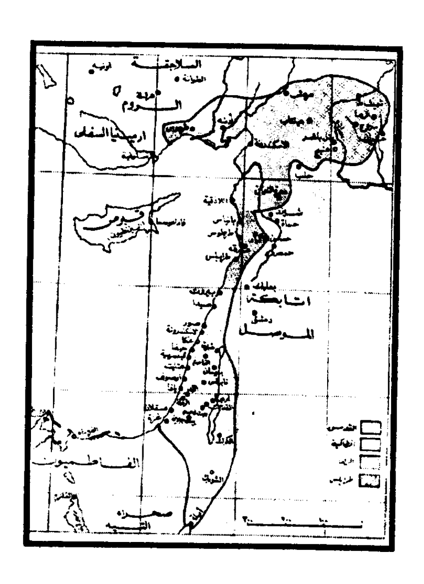
ولقد أمضى نجم الدين أيوب جُل حياته يحارب بقايا الصليبيين ، ويجمع المماليك ويقوى من جيوشه حتى يتمكن من مواصلة حروبه مع الصليبيين ، فضلا عن النزاعات والخلافات التى استشرت بين أبناء عمومته من الأيوبيين . لكنه استعاد القدس، وكانت قد ضاعت بالمفاوضات بتسليمها للصليبيين دون قتال ، كما استعاد أماكن كثيرة من الصليبيين . وكانت الهزائم التى ألحقها نجم الدين أيوب بالحملة الصليبية السادسة قد أثارت لويس التاسع ملك فرنسا ودفعته الى إعداد العدة والذهاب بجيوشه الى الشرق فيما يعرف بالحملة الصليبية السابعة .



الحملات الصليبية

تواريخها وأسماؤها ونتائجها

التاريخ	إسم الحملة الصليبية	النتائج
١٠٩٦م	حملة الشعب	. دمرها الأتراك فى آسيا الصغرى
١٠٩٦م	٣ حملات صليبية ألمانية	.مذابح اليهود. دمرها المجريون
١٠٩٦م	الحملة الصليبية الأولى	إمارة الرها ومملكة القدس
١١٠٠م	الحملة اللومباردية	دمرها قلج أرسلان
١١٠١ م	الحملة النفرسية	دمرها قلج أرسلان وملك غازى
١١٠١ م	الحملة الأكيتانية	دمرها قلج أرسلان وملك غازى
١١٤٧م	الحملة الصليبية الثانية	حصار دمشق
١١٨٩م	الحملة الصليبية الثالثة	حتلال قبرص وعكا
١٢٠١م	الحملة الصليبية الرابعة الضالة (ضدالمسيحيين)	نهب القسطنطينية وإنشاء كنيسة وامبراطورية لاتينية فى القسطنطينية
١٢١٧م	الحملة الصليبية الخامسة	استعادة الصليب
١٢٢٨م	الحملة الصليبية السادسة	استعادة أورشليم سلميا
١٢٤٨م	الحملة الصليبية السابعة	أسر لويس التاسع فى المنصورة
١٢٧٠م	الحملة الصليبية الثامنة	موت لويس التاسع أمام تونس



مملكة القدس والإمارات الصليبية

ثانيا - الإجتياح المغولى

ظهرفى القرن الثالث عشرخطرآخرتهدد العالم الإسلامى بخلاف خطر الحملات الصليبية القادم من الغرب ، قادما هذه المرة من الشرق ، من وراء النهر وأقاصى آسيا ، ألا وهو الخطر المغولى بزعامة جنكيزخان الرهيب ، الذى كان قد قهر الصين بالفعل ، وانطلق غربا يحرق ويدمر ولا يقف فى طريقه شئ . وفى سنة ١٢٢٠م استولى المغول على سمرقند وبخارى ، وفى منتصف القرن كانوا قد استولوا على روسيا ووسط أوروبا وشمال إيران والقوقاز،وفى ١٢٥٨م استولوا على عاصمة الخلافة العباسية بغداد بقيادة هولاكو وأنهوا بقايا الإمبراطورية العباسية التى كانت فى أوج عظمتها فى وقت من الأوقات .

وأسفر الإجتياح المغولى فى واقع الأمرعن اضمحلال الشرق العربى والإسلامى اضمحلالا شديدا . ذلك أن المغول فى اجتياحهم قتلوا أعدادا غفيرة من الدارسين والعلماء ودمروا المكتبات بما فيها من أعمال لاتُعوض ، ونتيجة لذلك انمحى الكثير من التراث الثقافى والعلمى والتكنولوجى الذى لا يقدّربثمن مما كان يحتفظ به الدارسون المسلمون ويضيفون إليه طوال ما يقرب من خمسمائة سنة .

وانطلق المغول من العراق غربا إلى داخل سوريا ثم يمموا وجههم شطر مصر. وللمرة الأولى يجابه المغول عدوا يرفض الخضوع لقوتهم الهائلة ، ألا وهم المماليك بقوتهم العسكرية والمعنوية الجبارة . ولأول مرة يتجرع المغول كأس الهزيمة في معركة عين جالوت الشهيرة عام ١٢٦٠م . فقد استطاع المماليك تعبئة قواتهم المادية والمعنوية ، وفى الوقت المناسب ساروا شرقا حيث درات رحى المعركة الشهيرة بالقرب من الناصرة بفلسطين واجتثوا شأفة المغول .

وكباقى الشعوب التى وصلها الإسلام أو وصلت إليه ، دخل المغول فى الإسلام جماعات وزرافاتا . وفى باكورة القرن الرابع عشرأعلن غازان خان محمود أن الإسلام دين الدولة ، وظلل السلام الجزء الشرقى من الإمبراطورية المغولية ، وراح المغول يبنون المساجد والمدارس ويرسلون الطلاب فى بعثات دراسية من كافة الأنواع ، وشتى فروع العلم .

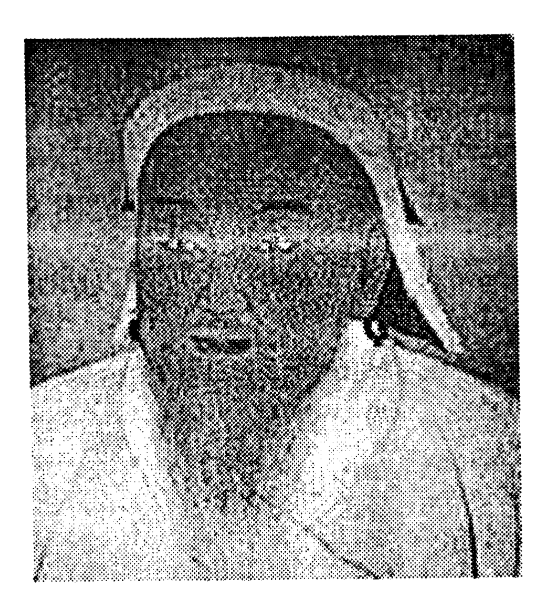
ثالثا ــ التحالف الصليبى المغولى

لم يكن العقد الخامس من القرن الثالث عشر عقدا طبيعيا للعرب والمسلمين ، إذ كانت الإمبراطورية الإسلامية الضخمة ترزح تحت ضربات المغول من الشرق والصليبيين من الغرب . ولم يدخر الصليبيون وقتا بعد هزيمتهم المشينة التى ألحقها بهم صلاح الدين فى معركة حطين كما تقدم ، بل تمكنوا فى الواقع من استعادة أغلب ما فقدوه أثناء حكم أولاده وأحفاده . إذ دب الخلاف بين سلاطين الأيوبيين ونشط الأخ يحارب أخاه ، وشمّر العم يحارب ابن أخيه ، ويدعو سلطان منهم إلى الجهاد لمحاربة ابن عمه ، وهكذا استحالت الأسرة الأيوبية إلى أعداء يحارب بعضهم بعضا ، حتى وصل الأمر بالسلطان الكامل ابن أخى صلاح الدين إلى إعادة القدس إلى الصليبيين دون قتال كى يساعدوه فى حروبه مع أخوته وأبناء عمومته .

ولم يكن هناك سوى بصيص أمل للمسلمين انبعث من القاهرة. ذلك أن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، الذى يعتبره المؤرخون أفضل ملك فى الأسرة الحاكمة الأيوبية ، كان فى حركة لا تهدأ ، يقود جيوشه لمحاربة الصليبيين ، وفى ١٢٤٤م خاض معركة حاسمة استعاد على أثرها القدس وعسقلان وأعاد توحيد سوريا مع مملكته. وكان لانتصاراته أثرها فى أوروبا ، إذ أدرك عواهل الغرب أن الطريق الى القدس يمر بالقاهرة ، ومن ثم ، واستجابة للنداء الذي أطلقه مجمع ليون الكنسى سنة ١٢٤٨م ، خرج الملك

القديس لويس التاسع الفرنسى فى ما يعرف بالحملة الصليبية السابعة بتنسيق كامل مع البابا إينوسنت الرابع .

وفى واقع الأمر، لم تكن حملة لويس التاسع تستهدف إستعادة القدس والقضاء على مصر باعتبارها القاعدة العسكرية الرئيسية والمصدر الرئيسى للقوة البشرية وحسب ، وإنما كانت حملة لويس التاسع تستهدف محاصرة الإسلام والقضاء عليه بإنشاء تحالف مع المغول للإحاطة بالعالم الإسلامى من الشرق ومن الغرب ، كما سيأتى تفصيله فى الصفحات التالية .



جنكيز خان رأس المغول

الفصل الثانى

♣♣♣♣♣

القديس لويس التاسع
ملك فرنسا

♣♣♣♣♣



القديس لويس التاسع ملك فرنسا
٥ إبريل ١٢١٥م – ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م



Saint Louis IX King of France
القديس لـــويس لتاسـع ملـك فرنسـا

١ - على فراش المرض

أمضى ملك فرنسا لويس التاسع وقتا غير قصيرطريح فراشه يصارع المرض ، يخرج من داء ليدخل إلى داء غيره ، وقد أضنته الأسقام والعلل ، ونالت منه الأمراض ، ثم داهمته الملاريا فى ديسمبر ١٢٤٤م ، فأمسى على شفى الإحتضار، وعبثا ما حاوله الأطباء ، وباطل ما بذلوه له من جهد لإنقاذ حياته ، فتبدد الأمل فى الشفاء ، وبدت ساعته وشيكة ، وأجله على الأبواب .

ولكنه رفض أن يهزمه المرض، وتشبث بالحياة ، وصارع الموت ولجأ إلى الرب يتضرع إليه ، ويبثه آلامه ، يعاهده أن يلبى نداءه ويعوض ما فاته من تقصير، وينضو عن نفسه ثوب الغفلة ويخرج فى حملة صليبية إلى الشرق ، لإنقاذ قبر الرب من براثن الكفرة المسلمين إن هو شفى من أمراضه . فيستجيب له الرب ، وينقذه من المرض ويبعد عنه شبح الموت .

وما أن ذهب عنه المرض واسترد عافيته حتى شرع فى إعداد العدة لحملته الصليبية . وهو الآن فى الثلاثين من عمره ، فى شرخ الشباب ، طويل القامة ، رشيق الحركة ، أشقر الشعر والبشرة ، وإن ظل يعانى من الأنيميا ومرض الحمرة .

وكانت له ميزات ثلاث نادرة . إذ اجتمعت في شخصيتة القوية الورع الدينى ، وحزم الحاكم ، وشجاعة المحارب ، فبدا المثل الأعلى للمحارب الصليبى . وكان يؤمن إيمانا عميقا بأن الحملة الصليبية هى من أعمال الرب ، وأنه مسؤول أمام الرب عن رفاهية رعاياه ، فهو مليكهم وراعيهم والساهرعلى رفاهتهم .

ولم يكن يسمح لأي أسقف من الأساقفة ولا حتى للبابا نفسه بالوقوف بينه وبين مسؤوليته تلك . وبرغم ما كان يحمله من احترام لحقوق أتباعه الإقطاعيين ، وإن كان لا يخلو من إرتياب فى تصرفاتهم ، كان يتوقع منهم الوفاء بواجباتهم حيال رعاياهم ، فإذا ما تقاعسوا قلّص سلطانهم ، وهكذا نال الإعجاب من الجميع حتى من

أعدائه ، خاصـة ما كان يشهد به القاصى والدانى من تقوى وتواضع وتقشف . ولم يخلف وعدا قط ، وكان عنيفا مع الآثمين لا تأخذه فيهم رحمـة ولا هوادة ، وكانت صرامته تبلغ مبلغ القسـوة والغلظة فى تعامله مـع الهراطقة والكفرة . وكان المحيطـون به من أصدقائـه والمترددون عليه يجدون فى حديثه سحرا وسخرية رقيقة . وكان مع أطفاله سيدا مستبدا ، أما مليكتـه مرجريت البروفانسية فكانت سيدة مرحة متعالية ، لكنه روضهـا وأحال سلوكها إلى ما يليق بزوجـة قديس .

٢ - الإعداد للحملة الصليبيـة

وشمـّر الملك عن ساعده طوال السنوات الثلاث التالية لشفائه يعد العدة للحملـة الصليبية التى عاهد الرب عليهـا أثناء مرضه ، ففرض ضرائب إضافية لتمويل الحملة ولم يستثن رجـال الدين ، فأثـاربذلك حفيظتـهم وحنقـهم . وعهـد بالوصايـة على البلاد مرة أخرى إلى أمه الملكة بلانش التى أظهـرت إقتدارا فى حكم البـلاد أثنـاء الفترة العصيبـة العاصفـة السابقة على بلوغـه سن الرشـد . وكان لزاما عليه توفير السفن التى كان لها أن تنقل الحملة إلى الشرق ، وبعد مفاوضـات قليلة وافقت مملكة جنـوا ومرسيليـا على تقـديم السـفن الضـرورية ، أمـا البنادقـة فقد ساءهم ما يجـرى ، إذ من شأن ذلك إلحاق الضرر بترتيباتهم التجارية الطيبـة مع مصـر ، فاتـقدت لديهـم روح العـداوة .

وفى الثانى عشر من أغسطس عام ١٢٤٨م غادرالملك لويس عاصمتـه باريس . وأبحـر فى الخامس والعشرين من إيجو- مورت قاصدا قبرص وبصحبتـه زوجتـه الملكة مرجريت وأخويـه روبرت كونت أرتوا وتشارلز كونت أنجـو ، والكثير من كبار رجالات الدولـة ومن الأقل شأنـا كذلـك ، وقد أبحـر بعضهم من مينـاء إيجو- مورت والبعض الآخـر من مرسيليا ، وانطلقت فى أثرهم كتيبـة انجليزيـة بقيادة وليم ، إيرل سالزبرى، وهو حفيد هنرى الثـانى .

وانتوى لوردات آخرون الإنضمام إلى الحملة لاحقا ، لكن هنرى الثالث لم يكن ليفقد خدماتهم فسعى لدى البابا كي يحول دون مرورهم ، وجاء من اسكتلندا باتريك ، إيرل دونبار، لكنه مات فى الطريق إلى مرسيليا . وهكذا كان جيشه هائلا عَرَمْرما ربما بلغ عدد أفراده خمس عشرة ألف جندى . ووصل الأسطول الملكى ميناء ليماسول فى قبرص فى السابع عشر من سبتمبر، وفى اليوم التالى هبط الملك والملكة إلى البر، وخلال الأيام القليلة التى تلت تجمع جنود الحملة الصليبية فى قبرص ، وجاء من عكا السيد الأعظم القائم بالأعمال فى نظام فرسان المعبد الدينى العسكرى ، وبارونات سيريانيون كثيرون واستقبلهم الملك هنرى ملك قبرص ببالغ الحفاوة والترحيب .

٣ - خطة لويس احتلال مصر

وعند مناقشة الخطة التى يتعيّن أن تسير الحملة بمقتضاها ، اتفق الجميع على أن تكون مصر هى المستهدفة ، فهى أغنى مقاطعات الإمبراطورية الأيوبية وأيسرها اقتحاما ، وفى الإمكان التفاوض مع سلطانها كما حدث فى الحملة الصليبية الخامسة إذ كان السلطان على استعداد لمبادلة القدس نفسها بدمياط ، بل إنه سلمها فعلا دون قتال . وهكذا اتخذ قراراستهداف مصر، وأبدى الملك لويس التاسع رغبته فى أن يبدأ الهجوم على الفور، لكن سادة الأنظمة الدينية العسكرية وغيرهم من البارونات أثنوه عن عزمه ، إذ سرعان ما ستبدأ العواصف الشتوية وتصبح الحملة محفوفة بالأخطار فى ساحل الدلتا بضفافه الرملية الخطرة وقلة موانيه ، كما كانوا يأملون فى اقناع الملك بالتدخل فى النزاعات الأيوبية العائلية ، ففى صيف عام ١٢٤٨م قام الناصر يوسف صاحب حلب بطرد ابن عمه الأشرف موسى من حمص ، فاستنجد الأميرالمخلوع بالملك الصالح نجم الدين أيوب الذى لبّى نداءه وجاء من مصر وحاصر حمص لإستعادتها ، وكان فرسان المعبد قد بدأوا فعلا فى التفاوض مع نجم الدين أيوب مقترحين أن يتخلى السلطان عن بعض الأراضى لقاء مساعدات إضافية من الفرنج . على أن الملك لويس

لم يبد اهتماما بهذه المخططات ، فقد جاء ليحارب الكفرة لا ليخوض فى الأمور الدبلوماسية ، وأمرفرسان المعبد بالكف عن مفاوضتهم .

٤ - ورع ونفـاق واستكبـا ر

تسلطت على الملك لويس التاسع هواجس منعته من التفاوض أو الإتفاق مع هؤلاء المسلمين الكفرة ، لكن تلك الهواجس لم تكن لتنطبق على المغول الوثنيين ، إذ وصل إلى قبرص اثنان من النساطرة فى ديسمبر١٢٤٨م ، أرسلهما القائد المغولى أليغيداي ، حاكم الموصل من قِبَل الخان الأعظم ، وأبرزا رسالة تسهب فى تعاطف المغول مع الميسحية ، الأمر الذى أدخل البهجة على لويس التاسع فأرسل من فوره بعثة من المسيحيين الدومينيكانيين برئاسة أندرو أوف لونيمو وأخيه وهما يتحدثان العربية ، وقد حملت البعثة معها هدايا تتألف من نموذج لكنيسة وبعض الآثار الدينية لمذبحها وغيرذلك ، وقابلت البعثة أليغيداي حاكم الموصل الذى أرسل البعثة إلى منغوليا ، حيث وجدت أن جويوك كبير المغول قد مات وأرملته أوغول تقوم بالوصاية . وقابلت الأرملة البعثة مقابلة كريمة ، غير أنها اعتبرت الهدايا مجرد إتاوة من تابع لسيده . وحالت مشاكل الأسرة المغولية دون إرسال حملة كبيرة الى الغرب ، وعاد أندرو بعد ثلاث سنوات بمجرد خطاب شكر من الأرملة باعتبارها السيد الأعلى لما أبداه تابعها من حرص على خطب ود المغول ، وطلبت إرسال هدايا مماثلة كل عام . وذهل لويس التاسع من هذا الرد ، إلا أنه لم يفقد الأمل فى التوصل الى تحالف مع المغول يوما ما .

ولم يكتف لويس بالإمتناع عن التفاوض مع الكفرة ، كما لم يكن يرضيه تفاوض فرسان المعبد مع مصر فأمرهم بالتوقف عن التفاوض وقطع المفاوضات التى كانت قد بدأت بالفعل . لقد كلفه الرب بمحاربة الكفرة لا التحدث معهم ، وقدجاء ليحاربهم ويقتلهم . على أنه في ورعه وتقواه لم يجد حرجا من مراسلة الملك الصالح نجم الدين أيوب فى رسالة أثبتها المقريزي ، جمع فيها بين الغرور والتعالي .

رسالة لويس التاسع
إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب

أما بعد - فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية ، كما أنى أقول إنك أمين الأمة المحمدية ، وإنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ، ونخلى منهم الديار ، وقد أبديت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك النصح إلى النهاية ، فلو حلفت لى بكل الأيمان ، ودخلت على القسوس والرهبان ، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان ما ردنى ذلك عن الوصول إليك وقتلك فى أعز البقاع عليك ، فإن كانت البلاد لى فيها هدية حصلت فى يدي ، وإن كانت البلاد لك والغلبة عليّ فيدك العليا ممتدة إليّ ، وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى تملأ السهل والجبل ، عددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا .

جواب الملك الصالح نجم الدين أيوب
إلى الملك لويس التاسع

وهى من إنشاء القاضى بهاء الدين زهير بن محمد كاتب الإنشاء :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبة أجمعين .

أما بعد - فقد وصل كتابك وأنت تهدد بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، فنحن أرباب السيوف ، وما قُتِلَ منا قِرن إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه ، فلو رأت عيناك ،

أيها المغرور ، حد سيوفنا وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وإخرابنا منكم الديار الأواخر والأوائل لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولابد أن تزل بك القدم ، فى يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسيئ بك الظنون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . فإذا قرأت كتابى هذا فكن فيه على أول سورة النحل : أتى أمر الله فلا تستعجلوه ، وكن على آخر سورة ص : ولتعلمن نبأه بعد حين، ونعود إلى قوله تعالى وهو أصدق القائلين ، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين وإلى قول الحكماء : إن الباغى له مصرع ، وبغيك يصرعك وإلى البلاء يقلبك ، والسلام .

كتاب السلوك للمقريزي ج ١، ق ٢، ٣٣٤-٣٣٥

وقد ورد نص مشابه تماما لهذا النص فى "الخطط المقريزية" ج١- ٣٨٦.

٥ - إحتلال دمياط

فى الثالث عشرمن مايو١٢٤٩م احتشد أمام ميناء ليماسول القبرصى أسطول من مئة وعشرين سفينة كبيرة وكثيرمن السفن الأصغر، وقد امتلأت بالجنود والمؤن والمعدات ، استعدادا للإبحار إلى مصر . غير أن عاصفة شديدة هبت وبعثرت هذا الحشد الهائل من السفن ، وعندما أبحر الملك نفسه فى الثلاثين من مايولم يكن معه سوى ربع جيشه، وأبحر باقى الجنود فى سفن أخرى غير سفن الملك . ووصل الأسطول الملكى أمام دمياط فىالرابع من يونية ١٢٤٩م .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سوريا يحاصر حمص وقد توقع أن يهبط لويس التاسع فى الشام تعزيزا لبقايا الصليبيين ، فما أن علم بوصوله إلى دمياط حتى رفع الحصار عن حمص ، وأسرع عائدا الى القاهرة واستدعى جيوشه السورية كى تلحق به .

وكان رجلا مريضا يعانى من مرض السل فى مراحله المتأخرة ، ولذا أمرقائده المسن فخر الدين بتولى قيادة الجيش الذي سوف يقاوم الهجوم الصليبى فى مصر، وأرسل المؤن إلى دمياط ووضع فى حاميتها جنودا من بنى كنانة ورجالا من البدو الشجعان .

وفى فجرالخامس من يونية هبط لويس على الرمال الواقعة الى الغرب من مصب النهر، واستبسل جنوده فى المعركة التى دارت رحاها ، فلحقت بالمسلمين خسائر جسيمة أجبرتهم على التراجع ، وبهبوط الظلام سحب فخر الدين رجاله وعبر جسر القوارب الى دمياط فوجد أهلها فى حالة من الذعر، وقد تخاذلت الحامية فقرر اخلاء المدينة ومعه كل سكانها وتبعهم بنو كنانة بعد أن أشعلوا النيران فى الأسواق ، لكنهم أهملوا أوامره بتدمير جسرالقوارب كي يعرقل الصليبيين ويتاح له الوقت لإعادة تنظيم قواته استعدادا لمعركة ثانية . وبذا أصبحت دمياط بلا دفاع فدخلها الصليبيون دون عناء .

٦ - دمياط تتحول إلى مدينة مسيحيّة

انتشى الصليبيون لفوزهم بدمياط على هذا النحو اليسير، ولكنهم لم يتمكنوا من الإستمرارفى تقدمهم بسبب فيضان النيل الوشيك ، فقررالملك لويس الإنتظارحتى هبوط مياه الفيضان ، كما أنه ينتظروصول تعزيزات من فرنسا كان مقررا أن يأتى بها أخوه ألفونسو كونت بواتو . وفى تلك الأثناء تحولت دمياط إلى مدينة إفرنجية ، وكما حدث فى سنة ١٢١٩م تحول الجامع الكبير إلى كتدرائية عُيّن لها أسقف ، وخصصت المبانى للأنظمة الدينية العسكرية . وانحازالملك لويس التاسع إلى المسيحيين والأقباط من أبناء المدينة برغم قولهم بالطبيعة الواحدة للمسيح . واستدعيت الملكة من عكا ، إذ كانت قد وصلتها من قبرص، وظلت دمياط طوال الصيف عاصمة مملكة ما وراء البحار(أوتريميه) ، فأخلد الجنود إلى الراحة فى مناخ الدلتا ذى الرطوبة الحارة ، فوهنت عزائمهم ، وتناقص الغذاء ، وبدأت الأمراض تطل برأسها فى المعسكر .

أما العالم الإسلامى فقد صدمه ضياع دمياط ، وأقدم الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى كان بين فكى الموت على خطوة جريئة أقدم عليها أبوه قبل ثلاثين سنة ، فقد عرض على الصليبيين منحهم القدس ثمنا لدمياط ، لكن لويس رفض العرض ، فما يزال يرفض التعامل مع الكفرة المسلمين . وعاقب السلطان الصالح نجم الدين أيوب القادة الذين تسببوا فى ضياع دمياط فأعدم أمراء بنى كنانة وألحق الخزي بفخر الدين وكبارقادة المماليك ، وسارع بإرسال الجنود إلى مدينة المنصورة التى بناها السلطان الكامل فى موقع انتصاره على الحملة الصليبية الخامسة ، ومن هنا جاء اسم المدينة من ذلك النصر، وحُمِل السلطان نفسه إلى هناك على محفته للإشراف على تنظيم الجنود ، ونشطت حرب العصابات ، وراح المصريون يغيرون فى جوار دمياط ويتسللون حتى أسوارها فيقتلون الشاردين من الصليبيين مما اضطرلويس إلى إنشاء السدود وحفر الخنادق لحماية معسكره وجنوده من مناوشات رجال نجم الدين أيوب .

٧ - فى الطريق إلى المنصورة

اجتمع لويس بالقادة الصليبيين فى دمياط لمناقشة الخطوة التالية التى يتعين اتخاذها ، فقال بطرس البريتونى إن الحكمة تقضى بشن هجوم مفاجئ على الإسكندرية ، خاصة وأن الحملة لديها ما يكفى من السفن لعبور فروع النيل ، ومن شأن ذلك أن يثير الإضطراب لدى المصريين فضلا عن السيطرة على كامل الساحل المصرى المطل على البحر المتوسط ، فيكون لزاما على السلطان الرضوخ لما تمليه عليه الحملة من شروط ، ولقى اقتراحه هذا تأييدا من بارونات مملكة ما وراء البحار (أوتريميه) . لكن أخا الملك ، روبرت أوف أرتوا عارض ذلك الإقتراح بحماس شديد مفضلا الإنطلاق صوب القاهرة مباشرة ، وأيّده الملك .

وفى العشرين من نوفمبر انطلق الجيش الصليبى من دمياط جنوبا على الطريق المتجه الى المنصورة . وابتسم لهم الحظ بادئ

الأمر، فبعد وقت قصير تعززت قوة الجيش بوصول الأخ الثالث للملك لويس، ألفونس أوف بواتو، وكان السلطان نجم الدين أيوب على فراش الموت فى المنصورة ومات بعد ثلاثة أيام فى الثالث والعشرين من الشهر .

وكانت هناك قنوات مائية كثيرة تعترض الطريق أكبرها البحر الصغير الذى يصل من فرع النيل الرئيسى جنوب المنصورة مباشرة لينتهى فى بحيرة المنزلة وهكذا يعزل ما يسمى جزيرة دمياط . وأبقى قائد جيش المسلمين فخرالدين أغلب جيشه خلف البحرالصغير، وراح فرسانه يغيرون على الأعداء فينهكون الفرنج أثناء عبورهم القنوات الأخرى الصغيرة ، إلا أن تلك المناوشات لم تجد فتيلا فى تقدم الجيش الصليبى الذى كان يقوده لويس متقدما تقدما بطيئا حذرا . وفى السابع من ديسمبر دارت معركة تمكن فيها الصليبيون من صد فرسان المسلمين . وراح فرسان المعبد يتعقبون الفارين ، وطاردوهم إلى مسافات بعيدة غير مبالين بأوامر الملك لويس ، فصادفتهم بعض المتاعب فى عودتهم للإنضمام إلى رفاقهم . وفى الرابع عشر من ديسمبر وصل جيش الملك ، وفى الحادى والعشرين ضرب لويس معسكره على ضفة البحرالصغيرفى مواجهة المنصورة. وظل الجيشان يواجهان بعضهما الآخر طوال ستة أسابيع إلى أن أمر الملك لويس ببناء جسر على البحر الصغير لعبوره ، لكن القصف المصرى من الضفة المقابلة خاصة باستخدام النيران الإغريقية كان شديدا وهائلا بحيث تخلى الملك لويس نهائيا عن فكرة بناء الجسر .

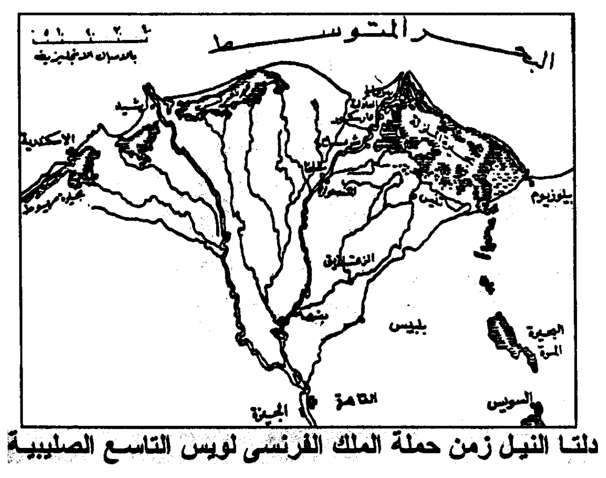
٨ - خيانة قبطى مصرى

وفى بداية شهر فبرايرجاء أحد أقباط مصر من سلمون إلى معسكر الصليبيين وعرض أن يدلهم على مخاضة لعبور البحر الصغير لقاء مبلغ خمسمائة بيزينت . وفى فجر الثامن من فبراير عبر الصليبيون المخاضة ومعهم الملك لويس وقاد أخوه روبرت كونت أرتوا المقدمة مع فرسان المعبد والكتيبة الإنجليزية ، وكانت

لديه أوامر صارمة بعدم مهاجمة المصريين بغير الحصول على إذن من الملك . ونجح العبور الصعب وإن كان بطيئا ، ولما رأى روبرت نفسه على الضفة الأخرى من البحر الصغيرمع رجاله خشى ضياع عنصر المفاجأة إن لم يبادر بالهجوم فى الحال ، وحاول فرسان المعبد تذكيره بأوامر الملك ، لكنه أصر على الهجوم فلم يجد فرسان المعبد بدا من مشاركته فى الهجوم . وكان مصيبا فى استغلال عنصر المفاجأة ، إذ كان المصريون خارج المنصورة بحوالى عشرين ميلا، وقد بدأ الجنود يومهم المعتاد حينما بوغتوا بخيالة الصليبيين وجيادهم تصهل فى وسطهم فجأة ، وقتل مصريون كثيرون وهم يهرعون إلى أسلحتهم ، وهرب آخرون إلى حيث الأمان فى المنصورة ، وكان قائدهم فخرالدين قد خرج لتوه من الحمام عندما سمع الهرج والمرج ، ولم ينتظر ارتداء دروعه وإنما اعتلى جواده من فوره وقفز إلى قلب المعركة حيث لقى حتفه .

استولى روبرت كونت أرتوا على معسكرالمصريين وقد داخله الغرور لهذا النصر السريع المتعاقب على المصريين ، وراح ينظم جنوده فى المعسكر الذي استولى عليه من المصريين ، ولم يشأ أن يمنح جنوده قسطا من الراحة وإنما أراد أن يطرق الحديد وهو ساخن وقرر مواصلة الهجوم لإحتلال المنصورة والقضاء على الجيس المصرى . وترجاه قادة نظام فرسان المعبد وكذلك وليم أوف سالزبرى التريث والإنتظار وأخذ جانب الحيطة إلى أن يأتى الملك والجيش الرئيسى ويعبروا المخاضة للإنضمام إليه ، بيد أنه ركب رأسه وضرب بتوسلاتهم عرض الحائط ، بل رمى فرسان المعبد والإنجليز بأوصاف مخزية واتهمهم بالجبن ، وأصرعلى التقدم لإحتلال المنصورة ، والقضاء على من تبقى من جنود الجيش المصرى .





دلتا النيل زمن حملة الملك الفرنسى لويس التاسع الصليبية

٩ - كارثة فى معركة المنصورة

بعد أن أعاد روبرت كونت أرتوا تنظيم صفوف رجاله ، شن هجوما جديدا على المصريين الذين كانوا يلوذون بالفرار ، ومرة أخرى لم يجد قادة فرسان المعبد والقادة الإنجليز بدا من اللحاق به. على أنه برغم مقتل فخرالدين استطاع قادة المماليك إعادة النظام بين رجالهم ، وتولى القيادة أكثرهم اقتدارا ، وهو ركن الدين بيبرس وكنيته البندقداري ، ووضع رجاله فى مواقع حساسة داخل مدينة المنصورة ذاتها ، وأمر بترك بوابة المدينة مفتوحة . وهجم فرسان الفرنج على المدينة وتدفقوا داخلها عبر البوابة المفتوحة ، وتقدموا إلى أسوار القلعة ذاتها وفى ذيلهم فرسان المعبد ، وعندئذ خرج المماليك من الشوارع الجانبية الضيقة وانقضوا عليهم كالصواعق ، وفى سويعات قليلة سقط الفرسان الصليبيون صرعى تباعا ، إذ لم تتمكن جيادهم من الإستدارة فى شوارع المدينة الضيقة وسرعان ما تبعثروا فى فوضى عارمة ، وتمكن فرسان قليلون من الهرب على أقدامهم إلى ضفاف النيل حيث غرقوا في مياهه ، بينما تمكن عدد آخر قليل من إنقاذ أنفسهم من المدينة ، واشتبك فرسان المعبد فى قتال الشوارع ، ولم يبق على قيد الحياة من عددهم البالغ مئتين وتسعين فارسا سوى خمسة فرسان . وهرب كونت أرتوا مع حرسه الخاص واختفى فى أحد المنازل لكن المصريين سرعان ما اقتحموا عليهم المنزل وقتلوهم عن آخرهم . وكان من بين قتلى الفرسان فى المعركة إيرل سالزبرى وأتباعه الإنجليز كلهم تقريبا ، وكان بطرس البريتونى معهم فى المقدمة وأصيب بجرح فى رأسه لكنه تمكن من الفرار من المدينة على ظهر جواد وأسرع عائدا ينذر الملك لويس .

وكان الجيش الصليبى كله قد عبرالبحرالصغير ، وعندما جاءت أنباء الكارثة الى الملك ، أسرع بإعداد العدة للدفاع وصد أي هجوم مضاد متوقع ، فنظم صفوف جنوده وأمر مهندسيه بتشييد جسرمن الزوارق على الممر المائى ، وأبقى كتائب من الرماه على الجانب الآخر من النهر لتغطية ما قد تملى به المعركة من تقهقر وذلك

برغم تلهفه الشديد على أن يلحقوا به . وحدث ما كان يتوقعه الملك ، فسرعان ما جاء المماليك وشنوا على الصليبيين هجوما بسهامهم التى كانت تتساقط عليهم كالمطر ، لكن الصليبيين صمدوا حتى نفدت السهام ، وعندئذ أمر لويس بهجوم مضاد رد فيه فرسان المماليك ، لكنهم أعادو تشكيل صفوفهم وهاجموا مرة أخرى ، وحاولت فصائل منهم تعطيل استكمال جسر القوارب ، وكاد الملك نفسه أن يسقط فى المجرى المائى من شدة الهجوم لولا هجوم مضاد آخر . وباقتراب غروب الشمس اكتمل بناء جسر القوارب وعبر عليه الرماة من الضفة الأخرى ، وبذا عززوا قوات الملك ، وانسحب المصريون مرة أخرى الى داخل مدينة المنصورة ، بينما ضرب لويس معسكره فى الموقع الذى كانوا يعسكرون فيه البارحة وعندئذ فقط علم الملك لويس من القائم برئاسة فرسان المستشفى بمقتل أخيه روبرت كونت أرتوا فانهمرت العبرات من مآقيه .

١٠ - لويس التاسع فى ورطة

وهكذا دفع الالفرنسيون ثمنا باهظا لإنتصارهم بسبب ما أقدم عليه روبرت كونت أرتوا من حماقات طائشة ، والآن بات الوضع ينذر بالخطر، وقد تذكروا جيش الحملة الصليبية الخامسة الذى توقف بالقرب من هذا المكان بعد احتلاله دمياط ، ثم انتهى به الأمر إلى أن أجبر على التقهقر، وكان ذلك أقصى ما كان يطمح إليه لويس ، إلا إذا حدثت اضطرابات فى القاهرة قد تدفع الحكومة الى أن تعرض شروطا مقبولة . وفى تلك الأثناء اتخذ جانب الحذر فعزز معسكره وقوى جسر القوارب ، فكان ذلك تصرفا يتصف بالحكمة ، فبعد ثلاثة أيام ، أي فى الحادى عشر من فبراير ١٢٥٠م ، هاجم المصريون مرة أخرى بعد أن وصلتهم التعزيزات من القاهرة وراح المماليك يحاربون معركة من أكثر المعارك شراسة فكانوا يشنون الهجوم تلو الآخر ويمطرون الصليبيين فى كل مرة سحبا من سهامهم ، وصمد لويس لهذه الهجمات وكان يحث جنوده على الصبر والتفانى إلى أن شعر المماليك بالإنهاك فانسحبوا فى نظام تام عائدين الى المنصورة .

وانقضى شهران كاملان ولويس ينتظر أمام المنصورة ، ولم تصله أنباء ما كانت تمنيه به نفسه من تمرد فى القاهرة ، بل وصل توران شاه بن السلطان نجم الدين أيوب إلى معسكر المصريين فى الثامن والعشرين من فبراير ١٢٥٠م ، وكان فى أراضى الرافدين ، وتولى القيادة ، وأشعل وصوله موجة من النشاط لدى المصريين ، إذ أمر بصنع أسطول من القوارب الخفيفة نُقِلَت على ظهور الإبل الى منافذ النيل فى تلك المنطقة وراح المصريون يعترضون السفن التى كانت تجلب الطعام الى الصليبيين من دمياط ، واستولى المصريون على أكثرمن ثمانين سفينة صليبية الواحدة تلو الأخرى ، وفى السادس عشر من مارس ١٢٥٠م فقد الصليبيون قافلة من اثنتين وثلاثين سفينة فى ضربة واحدة ، وسرعان ما حلّت المجاعة بمعسكر الصليبين وفى أثرها أمراض الدوسنتاريا والتيفود .

ولقد كان لويس كارهـا لفكرة التخلى عن هذا الجهد الضخم الذى كرس له مملكته نفسها ، فتأخر طويلا قبل أن تراوده فكرة الإنسحاب ، لكنه فى بداية شهر إبريل أدرك أنه يتعيّن انتشال الجيش من المعسكر الذى امتلأ عفونة ، والإنسحاب به إلى دمياط ، فاضطر الى الخضوع والتفاوض مع الكفرة المسلمين ، وأرسل إلى توران شاه يعرض استبدال دمياط بالقدس ، لكن السيف كان قد سبق العذل ، إذ كان المصريون يعرفون الآن مدى خطورة الورطة التى وقع فيها لويس فرفض توران شاه ما عرضه عليه الملك .

وجمع لويس قادة الجيش لمناقشة الإنسحاب ، وتوسل إليه القادة أن يتسلل مع حرسه الخاص إلى دمياط ، لكنه رفض فى إباء وشمم أن يترك رجاله ، وبدلا من ذلك قرر إرسال المرضى بالقوارب إلى دمياط ، وأن يمشى من يقدر على المشى بطول الطريق الذى جاءوا منه . وفى صباح الخامس من ابريل هدم المعسكر وبدأت رحلة العذاب والملك فى المؤخرة يشجع من يتخاذل عن المشى . وانطلق المصريون وراءهم يتعقبونهم ، وكان الصليبيون قد عبروا النهر الصغير عائدين باتجاه دمياط ، لكن المهندسين فاتهم تدمير جسر القوارب ، فعبر عليه المصريون

وسرعان ما بدأوا مناوشة الصليبيين من جميع الجوانب . ولم يتمكن الصليبيون فى حركتهم المتثاقلة من صد هجمات المصريين ، وسقط الملك مريضا عند حلول الظلام وفى صباح اليوم التالى تمكن بجهد جهيد من أن يثبت على جواده . وتمكن المصريون فى ذلك اليوم من إغلاق الدائرة حول الجيش الفرنسى ، وهاجموه بكل قوتهم . وبدا واضحا أن النهاية قد حلت . وأخذ الملك إلى كوخ فى قرية منية الخولى عبد الله الواقعة شمال شرمساح ، وكان قبول الهزيمة فوق احتمال فرسان الفرنج ، فتولى بارونات مملكة ما وراء البحار القيادة وأرسلوا فيليب أوف منوتفرات إلى المصريين عارضين السماح للجيش بالمضى آمنا فى طريقه مقابل تسليم دمياط ، وفى تلك الأثناء انطلق أحد مساعدى الفرسان يدعى مارسيل صائحا فى القادة بأن الملك أمرأن يستسلموا دون شرط . ويتحدث المؤرخون بأن المصريين قد رشوا مارسيل كي يصيح صيحته باسم الملك ، فأطاعوا الأوامر التى لم يكن لويس نفسه يعرف عنها شيئا ، وألقوا أسلحتهم وحاصر المصريون الجيش الصليبى كله واقتادوه فى الأسر، كما حاصروا السفن التى كانت تنقل المرضى إلى دمياط واستولوا عليها .

١١ - لويس التاسع أسيرا

وتهلل المصريون لهذا العدد الهائل من الأسرى ، فسوف تزداد أرزاقهم بالفدية والأسلاب ، ونقل المصريون الملك لويس مكبلا بالسلاسل وأودعوه فى منزل خاص فى المنصورة ، كما زجّوا البارونات جميعا فى سجن كبير، وراحوا يهددون بقتلهم إلاّ من يفتدى نفسه بفدية كبيرة .

ولم يطلب السلطان من الملك لويس التخلى عن دمياط فحسب ، وإنما التخلى أيضا عن كافة الأراضى الفرنجية فى سوريا ، فكان جواب لويس أن تلك الأراضى ليست تحت تصرفه وإنما هى من الأراضى التابعة للملك كونراد ابن الإمبراطور الألمانى ولا يملك

أحد غيره سلطة التخلى عنها . ومن ثم سحب السلطان طلبه لما كان للإمبراطور من مهابة ، على أن شروط إطلاق سراح الملك التى انتزعها من لويس كانت باهظة . فعلي الملك أن يفتدى نفسه بالتخلى عن دمياط وأن يفتدي جيشه بدفع مبلغ خمسمائة ألف جنيه تورى ، وهى العملة التى سُكت فى مدينة تور ، أي ما يعادل مليون بيزنت . وبعد أن وافق الملك على تلك الشروط أخذه المصريون ومعه كبار البارونات فى سفن أبحرت بهم إلى فارسكور التى كان السلطان قد اتخذها مقرا لإقامته ، وتقرر مواصلة الرحلة إلى دمياط لتسليمها بعد يومين أي فى الثلاثين من إبريل .

١٢ - شجاعة مرجريت ملكة فرنسا

بعد ثلاثة أيام من انتشار أنباء استسلام الجيش الفرنسى ، كان الوقت قد أزف لأن تضع الملكة مرجريت مولودها ، وقام بدور القابلة فارس تخطى الثمانين من عمره ، وفى مثل هذه الظروف المأساوية أطلقت على وليدها اسم "تريستان" أي وليد الأسى ، وفى الوقت نفسه علمت الملكة بأنباء ترتيبات أعدها أبناء بيزا وجنوا للجلاء عن دمياط لنفاذ الطعام من المدينة وعدم كفايته حتى لأهل المدينة ، ولقد أدركت الملكة تماما استحالة الصمود فى دمياط فى غيبة الإيطاليين ، فاستدعت زعماءهم الى جانب فراشها وجادلتهم بانهم إذا رحلوا عن دمياط فلن يتبق شئ لإفتداء الملك ، وعرضت أن تشترى طعام المدينة كله والإشراف على توزيعه ، فوافق أهل بيزا وجنوا على البقاء ، وكانت التكلفة باهظة زادت على ثلاثمائة وستين ألف جنيه ، لكنها رفعت من معنويات المدينة ، ونقلت الملكة ووليدها بحرا الى عكا ، بينما ذهب البطرق روبرت إلى السلطان فى فارسكور لإستكمال ترتيبات دفع الفدية .

وفى يوم الجمعة السادس من مايو ١٢٥٠م ، تسلم المسلمون القلعة ، وجئ بالملك الذى شرع فى البحث عن الأموال اللازمة للقسط الأول من الفدية ، إذ كان كل ما لديه من مال لا يجاوز مئة وسبعين ألف جنيه ، وتقرر أن يبقى أخو الملك ، ألفونسو كونت

بواتو ، رهينة لدى المصريين حتى تمام تسديد المبلغ . وكان معروفا أن لدى فرسان المعبد أموالا كثيرة فى سفنهم ، لكنهم رفضوا التخلى عنها ، فلم يعد هناك سوى تهديدهم بأخذها عُنوة ، فوافقوا على تسليم المال على مضض ، ومن ثم أطلق المصريون سراح أخى الملك ، وأبحر الملك وحاشيته إلى عكا فى رحلة عاصفة استغرقت ستة أيام .

ورفض لويس العودة الى الوطن برغم من توسلات مستشاريه ، إذ شعربأن ضميره يحتم عليه التفاوض مع الكفرة من أجل الإفراج عن أكبر عدد ممكن من الأسرى . وفى شهر إبريل عام ١٢٥٤م ، أي بعد أربعة أعوام ، غادر مملكة ما وراء البحار (أوتريميه) بعد أن أصلح دفاعات المملكة بترميم عدد من قلاعها المتقدمة ، وهكذا شعر بأنه قد كفّر عن فشل حملته الصليبية بهذا القدر الضئيل من التحصينات .

١٣ - نهاية القديس لويس التاسع ملك فرنسا

لم يسلم الملك الفرنسى من ثقل المسؤولية عن انهيارحملته الصليبية ، فراح فى عام ١٢٦٧م يعد العدة من جديد لحملة صليبية أخرى . بيد أن هذه المحاولة الثانية التى قام بها لم تصل الى الشرق قط . ذلك أنه لأسباب لم تتضح البتة ، والتى ربما ترجع شيئا ما إلى نفوذ أخيه تشارلز أوف أنجو ، اتجهت الحملة الى تونس بدلا من مصر .

وفي الثامن عشر من شهر يوليو عام ١٢٧٠م وصلت حملة لويس الصليبية الى شواطئ قرطاجة فى حمّارة قيظ الصيف ، وسرعان ما تفشى المرض بين الفرنسيين وسقط الأمراء والفرسان والجنود بالآلاف فريسة للمرض ، وكان القديس لويس التاسع ملك فرنسا من بين الأوائل الذين صرعهم المرض، وكذلك جون وليد الأسى (تريستان) الذى ولد فى دمياط .



لويس التاسع ملك فرنسا أسيرا فى المنصورة

الفصل الثالث

♣♣♣♣♣

الملك الصالح نجم الدين أيوب
آخر الأيّوبيين

♣♣♣♣♣

الأسرة الحاكمـة الأيوبيـة

١ - مـا بعد صلاح الدين الأيوبـى

٢ - الأفضل بن صلاح الدين ا لأيوبى

٣ - العادل أخـو صلاح الدين الأيوبى

٤ - الكامـل بن العادل

٥ - الخلافات الأيوبيـة

٦ - الكامل بن العادل يتخلى عن القدس

٧ - الحرب الأهلية الأيوبيـة

٨ - حملة تيبالـد الصليبية الفرنسيـة

٩ - انتزاع القـدس من الصليـبيين

١٠ -انتزاع عسقلان من الصليبيين

١١ -توران شـاه

١٢ -نشـوة الإنتصـار

الأسرة الحاكمـة الأيوبيّـة

١ – مـا بعـد صلاح الدين الأيوبى

فى الثالث من مارس عام ١١٩٣م توفى صلاح الدين الأيوبى العظيم فى دمشق بعد أن أكمل ما بدأه نورالدين زنكى فى توحيد العالم الإسلامى المحيط بالدويلات الصليبية وبعد أن قضى على القوة الصليبية الأساسية فى معركة حطين الشهيرة التى أسفرت عن استسلام كافة المدن والقلاع الصليبية فى فلسطين كلها على وجه التقريب فيما عدا مملكتى طرابلس وعكا .

مات منقذ الشرق والعروبة تاركا سبعة عشر ابنا وبنتا صغيرة ، أكبرهم **الأفضل** الذى استخلفه أبوه فى حكم دمشق وزعامة الأسرة الأيوبيـة ، يليه **العزيز** الذى كان حاكم مصر وأعلن نفسه سلطانا مستقلا ، والإبن الثالث **الظـاهر** وكان يحكم حلب ، ولم يظهر استعدادا لقبول سيادة أخيه العليا ، وابن آخر **خضـر** كان يحكم فى حران واعترف بسيادة أخيه الأفضل فى زعامة الأسرة الأيوبية

ولم يكن لصلاح الدين سـوى أخوين اثـنين من الباقين على قيد الحيـاة ، هما **طغتكـن** الذى خلف توران شاه فى حكم اليمن ، **والعـادل** الذى سيطر على أراضى شرق الأردن التى كانت فى حوزة الصليبيين من قبل ، وعلى أراضى الجزيرة حول الرهـا ، ولم يكن صلاح الدين يـثق فى طموحاته . وكان أبناء إخوته وأبناء عمومتـه يمتلكون ضياعا أصغر فى سائر الأراضى التابعة له . وكان أمراء آل زنكى ، عز الدين وعماد الدين ، يحكمون الموصل وسنجاركأتباع . كما كان أغلب أصحاب الإقطاعيات قوادا عسكريين استخدمهم صلاح الدين ، أبرزهم بكتمر أمير خـلاط . وبموت صلاح الدين بدأت وحدة الإسلام تتفتت إذ سرعان ما دب الخلاف بين أكبر أبنائـه ، **الأفضل** ، وابنه الثـانى **العزيز** ؛ ذلك أن الأفضل أقدم على خطوة تخلو من الحكمة عندما طرد أغلب وزراء والده ، فما كان منهم إلا أن هربوا الى مصر حيث رحب بهم العزيز ، وأخذ

بنصيحتهم وقام فى شهر مايو ١١٩٤م بغزو سوريا حتى وصل الى أسوار دمشق ، فارتاع الأفضل واستنجد بعمه العادل الذى هبط من الجزيرة فى جيش كبير وقابل العزيز وأجريت ترتيبات جديدة اضطر الأفضل بمقتضاها الى التنازل عن شمال فلسطين للعزيز ، وعن اللاذقية وجبلة لأخيه الظاهر صاحب حلب . ولم يحصل العادل على شىء سوى المهابة والمكانة العالية لقيامه بدورالتحكيم فى العائلـة .

٢ - الأفضل بن صلاح الدين الأيوبى

أهمل **الأفضل** حكم البلاد ، وراح يعاقر الخمر ويطرب للأوتار، وترك حكومة دمشق فى قبضة وزيره ضياء الدين الذى ما فتئ يحرض أتباع سيده على العصيـان ، فشعر عمه **العادل** بالخطر يتهدد المصالح الأيوبيـة ، فتحالـف مع ابن أخيه **العزيز** واستولى على دمشق فى يوليو ١١٩٦م ، وضم كل أراضـى الأفضـل الذى تقاعد فى مدينة صلخد فى جوار حران حيث كفـت عن المتع الحسيّة وعاش حياة التقى والورع ، واعترف بالعزيـز سلطانا أعلى للأيوبيين .

وتواصل الهدوء والونـام عامين . وفى التاسع والعشرين من نوفمبر ١١٩٨م مات العزيز بعد أن سقط من على جواده فى رحلـة صيد ، وكان ابنه الأكبر المنصور صبيا فى الثانية عشرة ، وخشى الوزراء من طموح العـادل ، فاستدعوا الأفضـل ليتولى حكم مصر فوصلها فى يناير ١١٩٩ م . وكان العـادل آنذاك فى الشمـال يحاصر ماردين التى تمرد أميرها الأرتقى بولوك أرسـلان على السيطرة الأيوبية ، وكان ابن أخى العـادل ، **الظاهر** صاحب حلب ، يلقى المتاعب من أتباعـه وقد ارتاب فى تشجيع عمه العـادل لهم ، فخطط للتحالـف ضده وأرسل جيشـا من حلب جنوبـا ، بينما أرسـل الأفضل جيشا من مصر لمهاجمـة دمشق ، وانضم إليهمـا آخرون من العائلة مثل شيركوه صاحـب حمص .

٣ - العادل أخو صلاح الدين الأيوبى

وهكذا وجد العادل نفسه فى وضع حرج ، فترك ابنه **الكامل** لمواصلة حصار ماردين ، وسارع إلى دمشق فوصلها فى الثامن من يونية ، وبعد ستة أيام وصل الجيش المصرى ، ووصل الظاهر وجيشه بعد ذلك بأسبوع ، وضرب الأخوان حصارا على عمهما طول ستة أشهر ، لكن العادل كان دبلوماسيا خبيرا حصيفا ، وتمكن تدريجيا من استمالة الكثير من أتباع ابن أخيه بمن فيهم شيركوه صاحب حمص ، وأخيرا ، فى يناير ١٢٠٠ م ، ظهر ابنه الكامل على رأس جيشه بعد أن انتصر فى الجزيرة ، فرفع الأخوان الحصار وانسحبا منفصلين ، وطارد العادل ابن أخيه الأفضل داخل مصر وهزم جنوده فى بلبيس فرضخ الأفضل لعمه وتلبّسه ورع جديد وعاد إلى تقاعده فى صلخد واستولى العادل على ولاية مصر. على أن ابن أخيه الآخر ، **الظاهر** ، شنّ هجوما مفاجئا على دمشق بينما كان العادل فى مصر ، وحث أخاه الأفضل على الإنضمام إليه ثانية ، فلبى الأفضل نداءه وهجر ورعه وتقواه وانطلق على رأس جيشه لحصار دمشق ، ومرة أخرى يسارع العادل إلى عاصمته فى الوقت المناسب فيحاصره ابنا أخيه . وتمكن من إثارة الشجار بينهما ، بعد أن اشترى الأفضل ووعده بمدينتي المصيصة وميافارقين فى الشمال بدلا من صلخد ، وبدأ أتباع الظاهر يتخلون عنه تباعا ، فلم يجد بدا من مسالمة عمه **العادل** معترفا بسيادته العليا . وفى نهاية عام ١٢٠١ م كان العادل قد بسط سيادته على كامل امبراطورية صلاح الدين . ولم يُسمح للأفضل بالسيطرة على ميافارقين ، وإنما دخلت فى الأراضى المحيطة بها تحت سيادة **المظفّر** وهو الإبن الرابع للعادل ، بينما تولى ابنه الأكبر ، **الكامل** ، ولاية مصر تحت سيادة أبيه ، وكان ابنه الثانى ، **المعظّم** ، نائبا لأبيه فى دمشق ، وحكم ابنه الثالث ، **الأشرف** ، أغلب أراضى الجزيرة من حران . ومنح الأبناء الأصغر إقطاعيات . وهكذا عادت وحدة الإسلام وعلى رأسها أمير كان يلقى من الإحترام أقل مما كان يلقاه صلاح الدين، لكنه كان أكثر مكرا ونشاطا .

على أنـه فى عام ١٢١٨ م هاجم الصليبيون مصر ونزلـوا إلى البر فى دمياط ، وكان العادل مريضـا فى دمشق عندما وصلتـه تلك الأنباء ، فكانت الكارثـة فوق احتماله فمـات وهو يناهز الخامسة والسبعين .

٤ - الكامـل بن العـادل

كان الكامل ما يزال يأمل فى السلام ، فهو يدرك أن دمياط لن تصمد ، وكان قلقا من تعاظم الخوارزميين الذين كانوا يتطلعون إلى التوجه غربا للإستيلاء على أراضيه فى الجزيرة لولا انشغالهم المؤقت بالمغول الآتين من الشرق . كما كان يعلم أنه يفتقر إلى القوات البرية ، فأولى اهتمامه بالقوة البحرية ، وفى صيف عام ١٢٢٠ م أرسل أسطولا فى فرع رشيد أبحر إلى قبرص حيث وجد أسطولا صليبيا راسيا أمام ميناء ليماسول ، فهاجمه وأغرق أو استولى على السفن الصليبية كلها وأسر الألوف . وفى ذات الوقت كان العمل يجرى على قدم وساق فى سوريا قام به أخوا الكامل ، المعظم وأخوه الأشرف ، لإعداد جيش إسلامى ضخم ، وفى الوقت المناسب هبطت جيوش أخوى الكامل بالقرب من بحيرة المنزلة فى مواقع حصينة أمام الصليبيين الذين كانوا يعسكرون أمام دمياط ، وسرعان ما ارتفعت مياه النيل فأبحرت سفن الكامل فيها وقطعت طريق سفن الصليبيين ، وبذا تحقق الصليبيون أنهم محاصرون بالكامل وما لديهم من الطعام يكفى لمجرد عشرين يوما فقط ، فتقرر الإنسحاب فورا ، وفى ليلـة السادس والعشرين من أغسطس عام ١٢٢١ م بدأ الإنسحاب وسط فوضى عارمة ، إذ لم يتحمل الكثير من الجنود ترك مخزوناتهم من النبيذ ، فشربوه كله بدلا من تركـه ، فكانوا ينسحبون وهم فى حالة سكر شديد ، وفى حركة حمقاء أشعل فرسان نظام التيوتون النيران فى المخزونات التى لم يستطيعوا حملها ، فعلم المصريون أنهم قد تركوا مواقعهم ، وفتح المصريون منافذ المياه بطول الضفة اليمنى فاندفعت المياه فى الأراضى المنخفضة التى يتعين على الصليبيين عبورها ، فكانوا يكدحون فى بحيرات الوحل ومن ورائهم خيالة المسلمين . وسرعان ما جاء

مبعوث الصليبيين الى السلطان طالبا السلام ، هذا فى الوقت الذي أعيد فيه تحصين دمياط وتعزيز الحامية وإمدادها بأسلحة وفيرة ، فضلا عن الأسطول البحرى القوى الذي بدا فى الأفق والذي أرسله الإمبراطور فريدريك . لكن الكامل كان يعلم أن الجيش الصليبى الرئيسى تحت رحمته ، وبعد مفاوضات سريعة وافق الصليبيون على التخلى عن دمياط واحترام هدنة مدتها ثمانية أعوام يعتمدها الإمبراطور وتبادل جميع الأسرى من الجانبين ، وعلى السلطان اعادة الصليب الحقيقى ، وهكذا دخل السلطان دمياط بعد أن انسحب منها الصليبيون .

٥ - الخـلافـات الأيوبيّـــة

انتصر الكامل فى مصر بمساعدة أخويه المعظم فى سوريا والأشرف فى الجزيرة ، لكن هذا التحالف الأخوى الثلاثى لم يقدر له البقاء طويلا . ذلك أن المعظم كان دائم الغيرة من أخيه الكامل ، والآن ارتاب فى أن الكامل والأشرف يخططان لغزو أراضيه ، وربما كان لريبته ما يبررها . كما ان الكامل كان دائم الخشية من الإمبراطورية الخوارزمية بزعامة جلال الدين الذى كان يحكم من أزربيجان إلى نهر الأندس وله سيطرة فعلية على الخليفة العباسى فى بغداد ، وزادت خشية الكامل عندما أراد المعظم إغاظة أخوية فاستنجد بجلال الدين الخوارزمى عام ١٢٢٦ م واعترف بسيادته العليا . وفى خريف ذلك العام أرسل الكامل أكثر أمرائه موضعا للثقة ، فخر الدين بن الشيخ ، إلى صقلية طالبا العون من الإمبراطور فريدريك عارضا استعداده لإعادة القدس الى المسيحيين ، لكنها لسوء الحظ فى أراضى أخيه المعظم . وفى الحادى عشر من نوفمبر ١٢٢٧ م مات المعظم تاركا أملاكه لشاب ضعيف عديم الخبرة فى الحادية والعشرين ، ابنه الناصر داود ، فبادر الكامل بالزحف على فلسطين واستولى على القدس ونابلس ، فاستنجد الناصر داود بعمه الأشرف الذى سارع الى نجدته . وتقابل الأخوان

الكامل والأشرف وقررا تقسيم أراضى ابن أخيهما فيما بينهما بعد اعتقاله ، لكن الشاب سمع بالمكيدة وفر هاربا الى دمشق ، فطارده جيشا عميه وضربا حصارا حول المدينة فى نهاية عام ١٢٢٨ م .

٦ - الكامل بن العادل يتخلى عن القدس

لم يكن هناك ما يخطط له الكامل بن العادل ويحصل عليه من الصليبيين بالمفاوضات . لقد كان على استعداد لمنح الصليبيين تنازلات إذا ساعده ذلك على المضى فى سياسته الأكبر ألا وهى إعادة توحيد العالم الأيوبى والسيطرة عليه . وتواصلت المفاوضات بينه وبين الإمبراطور فريدريك إلى أن وقّع مبعوثوه فى الثامن عشر من فبراير ١٢٢٩ م معاهدة سلام تقضى بأن يسترد الصليبيون مدينة القدس وبيت لحم مع ممر يمضى خلال اللد إلى البحر فى يافا والناصرة وغربى الجليل وباقى المقاطعات الإسلامية المحيطة بصيدا ، على أن تبقى قبة الصخرة والمسجد الأقصى فى أيدى المسلمين ويُسمح للمسلمين بحق الدخول وحرية العبادة ، وإطلاق سراح جميع السجناء من الجانبين ، ويستمر السلام عشر سنوات .

وارتاع العالم الإسلامى ، وأعلن الناصر داود فى دمشق الحداد العام على تلك المهانة التى لطخت الإسلام ، بل إن أئمة الكامل سبّوه فى مواجهته ، وهو لا يفتأ يردد ما يغيظ الكافة من أنه تخلى عن مجرد بيوت وكنائس مهدمة بينما المقدسات الإسلامية سالمة باقية للإسلام ، والمسلمون لا يزالون يسيطرون استراتيجيا على الإقليم . بل إن المسيحيين أنفسهم سخروا من تلك المعاهدة ، فالقدس ستظل مهددة بدون منطقة الأردن ، كما أن المسيحيين الوطنيين من الأرثوذوكس ملأهم الخوف من أن ينالهم الضرر لعودة الحكم اللاتينى الكاثوليكى ، خاصة وأن هناك قرارا بطرد فريدريك من الكنيسة . وأعرب البطريك جيرولد عن غمّه بأن رمى المدينة المقدسة بحرمان كنسى إذا استقبلت الإمبراطور . إن الورعين من المسلمين والمسيحيين على السواء نظروا شزرا إلى القصة برمتها ، والإستخفاف الجلىّ لا يكسب قلوب الناس .

ولقد حقق الكامل طموحاته فى توحيد العالم الأيوبى ، ففى عام ١٢٢٩ م تمكن أخوه الأشرف أخيرا من إبعاد ابن أخيه الناصر داود عن دمشق بعد أن منحه على سبيل التعويض مملكة فى وادى الأردن عاصمتها الكرك ، تحت سيادة الكامل ، واحتفظ الأشرف بدمشق واعترف بسيادة الكامل ، وتخلى له عن أراض فى الجزيرة وبطول نهر الفرات الأوسط .

على أن نجاح الكامل أثار غيره أقاربه . فقد كره الأشرف أن يكون تابعا ، وفى حلب مات الملك العزيز الصغير بن الظاهر ، وفى باكورة ١٢٣٧م جمع الأشرف حلفاءه ، وبدا أن لا مفر من الحرب الأهلية ، لكن الأشرف مات فى أغسطس من ذلك العام ، واستولى أحد إخوته الصغار ، الصالح اسماعيل ، على دمشق ، وزحف الكامل على دمشق فى يناير ١٢٣٨م وضمها ، وعوض الصالح اسماعيل بإقطاعية فى بعلبك . على أن العمر كان قد آذن بالإنتهاء فمات فى دمشق فى الثامن من مارس وهو فى الستين من عمـره .

٧ - الحرب الأهليّة الأيوبيّــة

وبموت الكامل فى دمشق فى الثامن من مارس ١٢٣٩م تفجّرت الحرب الأهلية بين بنى أيوب ، ذلك أن أكبر أبناء الكامل بن العادل ، **الصالح نجم الدين أيوب** ، كان فى الشمال ، وما أن سمـع بموت أبيه حتى زحف على دمشق التى كان أحد أبناء عمومته وهو الجواد ، قد استولى عليها ، وتمكن الصالح أيوب من خلع ابن عمه ، وفى ذات الوقت تم تنصيب أخيه الأصغر العادل الثانى سلطانا على مصر . وكان الصالح أيوب قد عقد العزم على أن يأخذ أغنى مقاطعات أبيه – مصر – وما أن شرع فى التوجه إلى مصر حتى قام عمه الصالح اسماعيل بانقلاب مفاجئ أطاح بعرشه فى دمشق . وأثناء فرار الصالح أيوب باتجاه الجنوب وقع فى قبضة الناصر داود صاحب الكرك الذى تبنى قضيته وأعاره الجنود لغزو مصـر. وكان أخوه الأصغر العادل الثانى قد عهد بحكومة مصـر

إلى زنجي شـاب كان مولعاً به ، مما أثار حفيظة وزرائه ، فتآمروا عليه وخلعوه فى يونية ١٢٤٠م ، ودعى الصالح أيوب ليعتلى العرش المصرى ، وكوفئ الناصر صاحب الكرك بمنحه لقب الحاكم العسكرى لفلسطين .

على أن الصالح إسماعيل بقى سيد دمشق ، وظل العالم الأيوبى طوال العقد التالى فى خصومة شديدة بين العم الصالح اسماعيل وابن أخيه الصالح أيوب . وسرعان ما سادت الفوضى فى الشمال ، إذ راحت عصابات الخوارزميين تعيث الفساد فى شمالى سوريا ، وربما كان ذلك بتعليمات من الصالح أيوب ، وفى الجزيرة كان أمير ميافارقين الأيوبى ، المظفر ، يحتفظ بسلطة ضعيفة . وحاول ابن الصالح أيوب ، توران شاه ، جمع شتات أراضى جده بعد أن استولى السلطان السلجوقى على مدن كثيرة ، ولكن دون جدوى . وفى حلب كان الناصر يوسف الذى خلف أخاه عام ١٢٣٦م فى جانب الدفاع ، بينما كان أميرا حماه وحمص يصدان الخوارزميين .

٨ - حملة تيبالد الصليبية الفرنسية

وأتاحت الصراعات بين ورثه الكامل الفرصة للصليبيين لإستخدام قوتهم التى تعززت فى سنة ١٢٣٩م بوصول حملة صليبية جديدة بقيادة تيبالد الفرنس (أوف شامبانى) ، فأوصى البارونات المحليون بتسيير حملة ضد مصر ، وأكد آخرون أن دمشق هى العدو . لكن تيبالد كان يطمح إلى تحقيق انتصارات متعددة ، فقرر أن يبدأ بمهاجمة القاعدتين المصريتين الأماميتين عسقلان وغزة ، ثم يهاجم دمشق بعد ضمان الحدود الجنوبية . وبانتشار تلك الأنباء هرعت الرسل تجوب كل بلاط أيوبى للترتيب لهدنة مؤقتة بين أمراء المسلمين .

وانطلق من مصر على وجه السرعة جيش من الدلتا إلى غزة بقيادة المملوك ركن الدين بيبرس وعلم الصليبيون بادئ الأمر أن عدده مجرد ألف رجل ، فتقرر مهاجمته وفى ليل الثاني عشر من

نوفمبر تحرك الصليبيون كلهم للزحف على غزة ، وكان قوام قوتهم خمسمائة من الخيالة وأكثر من ألف من المشاة . وكانوا على ثقة كبيرة من الإنتصار وعند الإقتراب من غزة فجرا وقف الصليبيون فى فجوة بين التلال الرملية على شاطئ البحر لأخذ قسط من الراحة. بيد أن الجيش المصرى كان أكبر بكثير مما كانوا يظنون وقد انتشر جواسيسة فى الأنحاء ، ولم يصدق ركن الدين بيبرس أن أعداءه على هذا القدر من الحماقة فأرسل الرماة زاحفين حول الكثبان الرملية إلى أن أحاطوا بالصليبيين . وسرعان ما انتهت المعركة بمشهد خيولهم ومشاتهم وهى تكدح فى الكثبان الرملية ، وأسر المصريون ستمائة آخرون وساقوهم الى مصر . وفى ذات الوقت زحف الناصر صاحب الكرك على القدس التى كانت بلا حماية ، واحتل الناصر المدينة بلا عناء .

وفى ذلك الوقت تقريبا نصّب الصالح أيوب نفسه سيدا لمصر ، واندلعت الحرب بينه وبين الصالح اسماعيل فى دمشق . وفى أوائل صيف عام ١٢٤٠ م شن الصا لح أيوب والناصر معا هجوما على الصالح اسماعيل الذي بوغت ، فعرض على الفرنج أن يتخلى لهم عن قلعتى شقيف أرتون وصفد العظيمتين والتلال الواقعة بينهما نظير مساعدته . لكن رعاياه أصيبوا بالصدمة ، ورفضت حامية شقيف أرتون التخلى عن القلعة العظيمة ، واضطر الصالح اسماعيل إلى الذهاب بنفسه لمحاصرة القلعة كي تستسلم ، وغادر دمشق اثنان من أئمة المسلمين تعبيرا عن تقززهما مما يحدث ولاذا بالقاهرة . وكان أحدهما الإمام العز عزالدين بن عبد العزيز بن عبد السلام .

وبينما قاد تيبالد جيشه لينضم الى قوات الصالح اسماعيل بين يافا وعسقلان ، شرع فرسان المستشفى فى إجراء مفاوضات مع الصالح أيوب ، وقوى مركزهم عندما هرب نصف رجال الصالح اسماعيل إلى المعسكر المصرى لكراهتهم العمل مع الصليبيين . ولمّا كان الهدف الرئيسى للصالح أيوب هو هزيمة الصالح اسماعيل ، فقد عرض على الصليبيين اطلاق سراح أسراهم فى غزة ومنحهم الحق فى احتلال عسقلان وتحصينها فى مقابل التزامهم جانب الحياد

فوافقوا ، وكان ذلك نصرا دبلوماسيا للصالح أيوب الذى تمكن بتكلفة زهيدة من كسر التحالف الذى ألحق الخزى والهوان بالصالح اسماعيل نفسه الذى أنشأه بادئ الأمر .

٩ - انتزاع القدس من الصليبيين

فى ربيع ١٢٤٤ م اندلعت الحرب بين الصالح أيوب والصالح اسماعيل ، فتشجع فرسان المعبد وحرضوا بارونات الصليبيين على التدخل بفعالية إلى جانب الصالح اسماعيل ، وكان الناصر صاحب الكرك وأمير حمص الصغير، المنصور ابراهيم ، قد انضما إلى الصالح اسماعيل ، وذهب المنصور ابراهيم بنفسه إلى عكا لإعتماد التحالف ، وليعرض نيابة عن الحلفاء منح الصليبيين جزءا من مصر حال هزيمة الصالح أيوب .

لكن الصالح أيوب لم يكن بالرجل الذى يُهزم بهذه السهولة إذ كان لديه حلفاء أشد بأسا من الصليبيين ، هم الأتراك الخوارزميين الذين دأبوا منذ أن مات ملكهم جلال الدين على التجول فى أنحاء الجزيرة وشمال سوريا للإغارة والنهب ، وكانوا لا يزالون على استعداد لبيع خدماتهم ، فدعاهم الصالح أيوب لغزو أراضى دمشق وفلسطين . وفى شهر يونية ١٢٤٤ م اجتاح عشرة آلاف فارس خوارزمى الأراضى الدمشقية ، ولم يهاجموا دمشق نفسها لمناعتها عليهم ، فواصلوا زحفهم داخل الجليل واستولوا فى طريقهم على طبرية وساروا باتجاه القدس . وفى الحادي عشر من يوليو ١٢٤٤م اقتحم الخوارزميون المدينة وتمكنوا من شق طريقهم الى دير القديس جيمس الأرمينى وقتلوا الرهبان والراهبات ، وخرج الحاكم الفرنجى فى قوة مسلحة من القلعة ليلقى حتفه ، ولكن الحامية صمدت ، وناشدت أقرب حلفائها من المسلمين ، الناصر صاحب الكرك . وبرغم كراهيته للصليبيين أرسل بعض جنوده الذين هددوا الخوارزميين إلى أن عرضوا على الحامية مرورا آمنا الى الساحل فى مقابل استسلام القلعة . ثم إن الناصر نفض يديه من مصيرها .

وهكذا انتُزعت القدس نهائيا من أيدى الصليبيين ، واقتحم الخوارزميون كنيسة القبر المقدس حيث كان بها قليل من القساوسة اللاتين المسنين يقيمون قداسا بعد أن رفضوا مغادرة المدينة فقتلوهم عن آخرهم إلى جانب قساوسة الطوائف الوطنية الذين كانوا بها ، واستخرجوا عظام ملوك القدس من مقابرها وهشموها ، وأشعلوا النيران فى الكنيسة ذاتها ، وانتهبت المنازل والحوانيت وأحرقت الكنائس . ثم إن الخوارزميين اتخذوا طريقهم إلى غزة للإنضمام إلى الجيش المصرى .

وفى ذات الوقت كان فرسان مملكة ما وراء البحار (أوتريميه) يتجمعون خارج عكا حيث انضمت اليهم جيوش حمص ودمشق تحت قيادة المنصور ابراهيم صاحب حمص ، وأحضر الناصر جيش الكرك . وكان الجيش المسيحى أضخم جيش منذ يوم حطين المشئوم . فكان هناك ستمائة فارس علمانى ، وأرسل نظاما المعبد والمستشفى ما يزيد على ثلاثمائة فارس فضلا عن كتيبة من النظام التيوتونى ، وأرسل أمير أنطاكية جيشا كذلك .

وكان الجيش المصرى رابضا أمام غزة بقيادة المملوك الشاب ركن الدين بيبرس ، وكان قوامه خمسة آلاف من الجنود المصريين المنتقين وحشود الخوارزميين . وفى السابع عشر من شهر أكتوبر ١٢٤٤م التقت الجيوش المتعادية فى قرية (خربيا) أو (لا فوربى) شمال شرق غزة . وهاجم التحالف الصليبى بالفرنج فى الميمنة وبالدمشقيين وأبناء حمص فى القلب ، وبالناصر فى الميسرة . وبينما كان الجنود المصريون يصدون هجوم ميمنة الفرنج ، كان الخوارزميون ينقضون على حلفائهم المسلمين ، وثبت المنصور ورجاله من أبناء حمص ، لكن الدمشقيين لم يتحملوا الصدمة فانقلبوا على أعقابهم وولوا الأدبار ومعهم الناصر وجيشه ، وبينما كان المنصور ابراهيم يقاتل لشق طريق يخرج منه استدار الخوارزميون وانقضوا على جناح الصليبيين يدفعونهم باتجاه الكتائب المصرية . وفى ساعات قليلة تم القضاء على جيش الصليبيين كله وقُدّر عدد قتلاهم بما لا يقل عن خمسة آلاف رجل ، واقتيد ثمانمائة فى الأسر .

١٠ - انتزاع عسقلان من الصليبيين

بعد هذا الإنتصار الساحق لنجم الدين أيوب ، هُزم الصالح اسماعيل بمساعدة صاحب حلب وأمير حمص ، ودخل الصالح أيوب دمشق بعد أن تقاعد الصالح اسماعيل فى بعلبك ، واعترف الأمراء الأيوبيون فى الشمال بسيادة الصالح أيوب الذي يستطيع الآن أن يتحول إلى الصليبيين مرة أخرى .

وفى السابع عشر من يونية ١٢٤٧ م استولى الجيش المصرى على طبرية وقلعتها ، ثم استولى على جبل الطور (فلسطين) وسار الى عسقلان وحاصرها . واستطاعت آلة المنجنيق الضخمة أن تشق ممرا أسفل الأسوار يفضى مباشرة إلى القلعة ، وفى الخامس عشر من أكتوبر تدفق الجيش المصرى خلال هذا الممروبوغت المدافعون الذين قتل الكثير منهم على الفور ووقع الباقون فى الأسر، وهدمت القلعة واستحالت خرابا ، ولم يتابع الصالح أيوب انتصاره ، وإنما قام بزيارة القدس ثم سار إلى دمشق ومكث فيها طوال شتاء عام ١٢٤٨م وربيع عام ١٢٤٩م وجاءه أمراء سوريا المسلمون كلهم لتقديم فروض الولاء .

وهكذا أمضى الملك الصالح نجم الدين أيوب جُل سنوات حكمه فى الصراعات الأيوبية فى سوريا وفى محاربة المملكة الصليبية فى فلسطين وفى عام ١٢٤٩م ، وبينما كان فى سوريا ، هبطت حملة لويس التاسع الصليبية فى دمياط فأسرع عائدا إلى مصر، وقاد جيشه الى منطقة المنصورة. على أن المرض اشتد عليه فى تلك الأثناء ووافته المنية والمصريون فى خضم المعركة . وخشيت أرملته شجرة الدر أن يؤدى خبر وفاته إلى انهيار معنويات الجنود ، وأرسلت تستدعى ابنه ووريثه توران شاه للحضورعلى عجل وعندما وصل توران شاه إلى مصر كانت الحرب قد بدأت تميل لصالح المسلمين الذين أسروا الملك لويس التاسع ملك فرنسا . بعد أن أحاطوا بالجيش الفرنسى كله

١١ - تـوران شــاه

ما أن سمع توران شاه من زوجة أبيه بوفاة والده نجم الدين أيوب حتى غادر دياربكر وأسرع عائدا إلى الجنوب . وأمضى ثلاثة أسابيع فى دمشق حيث نودى به سلطانا ، ثم واصل رحلته الى مصر التى وصلها فى نهاية شهر فبراير . وتوجه من فوره الى معسكر المصريين فى الثامن والعشرين من فبراير، فدبت روح النشاط والتفاؤل بين الجنود .

وقد مر بنا أن توران شاه أمر بصنع أسطول القوارب الخفيفة التى نُقلت على ظهور الدواب إلى منافذ النيل فى المنطقة ، وأن تلك القوارب اعترضت السفن التى كانت تجلب الطعام والمؤن من دمياط إلى معسكر الصليبيين ، وأن الجيش المصرى استولى على أكثرمن ثمانين سفينة إفرنجية ، وسرعان ما حلت المجاعة بمعسكر الصليبيين وبدأت الأمراض تنتشر بين الجنود ، ومن ثم أدرك الملك لويس الضرورة الحتمية التى تجبره على انسحاب الجيش من المعسكر الذى امتلأ بالمرضى والعفونة ، فاضطر إلى أن يهبط من غروره وكبريائه ويتفاوض مع الكفرة المسلمين، وعرض على توران شاه استبدال دمياط بالقدس ، لكن توران شاه رفض ذلك لعلمه بمدى الورطة التى وقع فيها الملك وجيشه .

١٢ - نشــوة الإنتصــار

علمنا ما حل بالملك لويس من هزيمة وخزى وأسر ، ومر بنا جلاء الفرنسيين من دمياط ، وافتداء لويس بمبلغ ضخم من المال . وانتشى توران شاه بانتصاره ، فأرسل إلى نوابه فى سوريا يعلنهم بهذا النصر المؤزر ، ومن بين ما أرسله إلى نوابه نورد هنا رسالته إلى نائبه فى دمشق :

رسالة الملك المعظم توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى نائبه فى دمشق جمال الدين يغمور يبشره باستسلام الصليبيين وظفر المنصورة

الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وما النصر إلا من عند الله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، وأما بنعمة ربك فحدث ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . نبشر المجلس السامى الجمالى بل نبشر المسلمين كافة بما منّ الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين ؛ فإنه كان قد استكمل أمره واستحكم شره ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد ، فنودوا ألا تيأسوا من روح الله .

ولما كان يوم الإثنين مستهل السنة المباركة وهى سنة ثمان وأربعين وستمائة ، تمم الله على الإسلام بركتها ، فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح وجمعنا العربان والمطوعة وخلقاً لا يعلمهم إلا الله جاؤوا من كل فج عميق ومكان سحيق ، فلما رأى العدو ذلك أرسل يطلب الصلح على ما وقع الإتفاق بينهم وبين الملك الكامل فأبينا. ولما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم وقصدوا دمياط هاربين، فسرنا فى آثارهم طالبين ، وما زال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل ، وقد حل بهم الخزي والويل ، فلما أصبحنا يوم الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غير من ألقى بنفسه فى اللجج . وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج ، والتجأ الفرنسيس إلى المنية وطلب الأمان فأمناه وأخذناه وأكرمناه ، واستلمنا دمياط بعون الله تعالى وقوته وجلاله وعظمته .

(كتاب الخطط للمقريزي ج ١ – ٣٩١)

وفى يوم الإثنين الثانى من مايو ١٢٥٠م ، أقام توران شاه فى فارسكور مأدبة لأمرائه وقد انتشى بنصره على الصليبيين ، وشعر بأنه من القوة بحيث يستطيع إعادة تشكيل الحكومة ويملأها بذوى الحظوة لديه من الجزيرة فى العراق متجاهلا المماليك . ولم يدرك أن هذا الجيش المملوكى الضخم من الأتراك والجراكسة قد تعاظم أيام حكم أبيه الذى كان يشملهم برعايته ، فكافؤه بإخلاصهم له ، وأيّدوا أرملته شجرة الدر وقت الشدة والأزمة ، ونتيجة لذلك بقى التاج على رأس توران شاه . وعندما اعترض المماليك على تغيير الحكومة واستجلاب الأمراء من ميافارقين ودياربكر، رد عليهم بتهديدات لفظها وهو فى حالة من السكر . كما كان قد أساء إلى زوجة أبيه بأن طالبها بممتلكات كانت لأبيه ، فكتبت من فورها إلى قادة المماليك لحمايتها . وانتهز المماليك وجودهم فى المأدبة وقرروا أمرا .

وعندما نهض توران شاه لمغادرة المأدبة ، انقض عليه المماليك وعلى رأسهم بيبرس البنداقدارى وراحوا يطعنونه بسيوفهم ، فهرب جريحا إلى برج خشبى على ضفة النهر، ولكنهم تبعوه وأشعلوا النيران فى البرج الخشبى ، فقفز فى النيل ووقف فى الماء متوسلا الرحمة عارضا التخلى عن السلطة والعودة إلى الجزيرة شمال العراق ، ولم يرحمه المماليك ، وإنما أمطروه بوابل من السهام ، لكنها لم تقتله ، فقفز إليه بيبرس فى الماء وقضى عليه بطعنات خنجره .

وظل جثمان توران شاه ثلاثة أيام دون أن يُدفن ، إلى أن طلب سفير الخليفة البغدادى من المماليك الإذن بدفه فى قبربسيط ، وعيّن المتآمرون المنتصرون زعيم المماليك عزالدين أيبك قائدا عاما للمماليك .



Al-Salih Imad al-Din Isma'il, Ayyubids of Damascus, together with al-Salih Najm al-Din Ayyub, Ayyubids of Egypt, Dimashq mint, 641 AH, silver dirham, 23 mm, 2.980 gm.

Obverse: Al-Imam al-Musta'sim billah amir al-mu'minin. Al-Malik al-Salih Isma'il. La ilaha illallah wahdahu la sharika lah Muhammad rasul Allah"

الإمام المستعصم بالله امير المؤمنين

الملك الصالح اسمعيل

لا اله الا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله

Reverse: Al-Malik al-Salih Najm al-dunya wa al-din Ayyub bin Muhammad. Duriba bi-Dimashq sanat 641 ...

الملك الصالح نجم الدنيا والدين ايوب بن محمد

ضرب بدمشق سنة احد واربعين وستمئة ...

الفصل الـرابع

♣♣♣♣♣

شَجَرَةُ الـــدّ ر

♣♣♣♣♣



شجرة الـدّ ر

Her beauty was unmatched amongst women, nor her resoluteness amongst men

جمـالها فريـد بين النساء ، وعزمهـا وحيد بين الرجال

١ - الزوجـة الوفيـّة

٢ - الحنكـة العسكرية والسياسية

٣ - سلطـانة مصـر

٤ - شجرة الدر تتخلى عن السلطنـة

٥ - السلطـان المملوك عز الدين أيبـك

♣♣♣♣♣

١ - الزوجـة الوفيّـة

يحدثنـا المؤرخون عمّا كانت تتمتع به شجرة الدر من جمال بارع ، وبياض للبشرة ناصع ، وشعرأسود كثيف بخصلـة تتدلى على جبهتـها فتزيد وجهها بهـاءً ، وصوت أخّـاذ آسر ، يضفى على شخصيتهـا القويـة ما يزيدها جلالا ، بقوة حديثـها المنطقى الراجـح الآخذ بالألبـاب .

على أن المؤرخين المحدثين دائمـا ما يولون جل اهتمامهم للبعض من ذوى الشأن والخطر بينما يتركون البعض الآخر منـزوين فى خلفيـات الأحداث على الرغم مما قاموا به من أدوار ذات خطر فى أحداث التاريخ . فمؤرخـو الحمـلات الصليبية يركزون على مشاهير القادة مثل ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين والقديس لويس والظـاهر بيبرس وغيرهم ، لكن هناك شخصيات أخرى غير هؤلاء لا تلقى ما تستحقـه من انتباه وتركيز فى تلك الفترة ، من بينها شجـرة الدر التى لعبت أدوارا مختلفـة فى تاريخ وسياسات مصر القرن الثالث عشر . ومع ذلك ، دائما ما يتجاهل المؤرخون والدارسون مـا قامت به من دورتاريخى بل أدوارتاريخية . فقد كان لهـا نفوذ هائـل فى بلاطها ، وكانت قائـدا عسكريا ، وأمّا ، وسلطانـة ناجحـة فى مراحـل مختلفة حتى سقوطهـا من السلطة عام ١٢٥٧م .

لقد نهضـت شجـرة الدر من أعمق أعمـاق حريم نجم الدين أيوب وارتفعت إلى الصدارة السياسـية فى مصـر قبل أن تهبـط مرة أخرى فى مستنقع السياسات المتباينـة لدولـة المماليك . وما تزال سيرتها المبكرة تلفهـا أكفـان الزمان القاتمـة ، إذ يقول أحد المؤرخين إنها جاءت من مجتمع بدوي تعتلى فيه النساء الجيـاد وهن سـافرات ولهن مكانة تتساوى مع مكانـة الرجل . ويقـول مؤرخون آخرون إنهـا ذات أصـل تركى أو أرمينـي .

وتظهـر شجـرة الدر فى التاريخ عام ١٢٣٩م على أنها من بين المماليك فى حريم الخليفـة المستعصـم وفـى عام ١٢٤٠م ضمّتهـا

نجم الدين أيوب إلى حريمه ، ومن هذه الحظوة بدأت سلطانة المستقبل تستحوذ على اهتمام السلطان وانتباهه وعلى سبيل المثال، عندما كان نجم الدين أيوب فى قبضة ابن عمه الناصر داود فى عام ١٢٤٨م ، نظرا لحاجة هذا الأخير إلى حلفاء فى صراعه مع دمشق ، كانت شجرة الدرترافقه فى قلعة الكرك حيث ولدت ابنهما خليل ، ولم يكن مع السلطان فى الكرك سوى اثنين: زوجته شجرة الدر وبيبرس . وبعد ذلك بعام عادت سلطانة المستقبل وولدها إلى القاهرة حيث وهبها زوجها أيوب لقب الزوجة المفضلة ، وهكذا رفعها حظها الباسم إلى مكانة رفيعة.

٢ - الحنكة العسكرية والسياسية

مات الملك الصالح نجم الدين أيوب فى اليوم الثالث والعشرين من نوفمبر ١٢٤٩ م بينما كانت المعارك مشتعلة مع قوات الملك لويس التاسع الذى كان قد استولى على دمياط وحولها إلى مدينة مسيحية، ثم تقدم باتجاه المنصورة فى طريقه للإستيلاء على القاهرة نفسها كما مر بنا . وفى ذلك اليوم الحزين لم تشأ شجرة الدر أن تعلن نبأ الوفاة ، إذ كان الوقت عصيبا ، والصليبيون على أبواب المنصورة ، فإذا ما تسرب نبأ وفاه سلطان مصر وعلم به المصريون الذين يتصدون للصليبيين ستنهار معنوياتهم ، فضلا عن أن الملك الفرنسى لويس سيجد الفرصة التى ينتظرها ، وربما يساعده الفراغ وغياب توران شاه فى شمال العراق فيسرع فى الزحف على القاهرة . فأخفت النبأ عن الجميع عدا حفنة من أقرب المقربين ، وأرسلت تستدعى الأمير فخر الدين بن شيخ الإسلام وابن عم السلطان الذى كان صاحب الحظوة والمكانة لدى نجم الدين أيوب ، وأطلعته على نبأ وفاة زوجها وأمرته بكتمان الأمر ومساعدتها على أن تستمر الأوضاع كما هى وكأن زوجها نجم الدين أيوب ما زال حيا يرزق . كما استدعت جمال الدين كبير ياورى السلطان الراحل ، وفى كتمان شديد ، حُمِل جثمان السلطان بليل إلى القاهرة حيث دفن سرا . وأرسلت إلى إبنه ووريثه توران شاه للحضور إلى مصر على جناح السرعة وكلّفت فخر الدين بالسيطرة الكاملة على الجيش

المصرى الذى يقاتل الصليبيين . لقد جاءت حملة لويس الصليبية فى وقت يبعث الرعب والهلع فى الأسرة الأيوبية ونظامها .

ولثلاثة شهور تقريبا ظل أطباؤه يدخلون حجرته كل يوم حاملين الدواء ، وكان رجال الدولة يطلبون مقابلة نجم الدين ، فيستقبلهم فخر الدين بدعوى أن حالة الملك الصحيّة لا تسمح بمقابلة أحد بناء على نصائح الأطباء ، ويتلقى فخر الدين ما يريدون إبلاغه ويغيب عنهم ويدخل إلى شجرة الدر بطلباتهم . وتنظر شجرة الدر فى طلباتهم وتستشير فخر الدين ، حتى إذا استقر رأيها على أمر أمضته كما لو كان زوجها نجم الدين أيوب هو الذى أمر وقضى ، وكذلك كانت المراسيم والوثائق الرسمية المراد توقيعها من السلطان تُحمل إليها فتوقعها وتخرج وقد دمغت بخاتمه . وإذا كان هناك ما يراد رأي السلطان فيه ، أشارت هى على النحو الذى لا يدعو مجالا للريبة فى أن السلطان نفسه هو الذى أشار به .

على أن كتمان مثل هذا الأمر لا يدوم طويلا ، وبدأت الكلمات والأقاويل تتردد هنا وهناك ، والمعارك ما تزال دائرة ، إلى أن عُرف الأمر ، لكن تدبيرها كان قد أوثق قبضته على الأمور كلها . وما أن سمع لويس التاسع بهذه الأقاويل حتى سار بجيشه نحو القاهرة ، بل وتمكن من إزاحة فخر الدين فى كمين مفاجئ . ومع ذلك ، تمكنت سلطانة المستقبل من السيطرة على الوضع السياسى والعسكرى إلى أن وصل توران شاه فى التاسع عشر من فبراير ١٢٥٠ م . وبفضل تحكم تلك المرأة القوية فى مسار الأحداث تمكن المماليك من هزيمة قوات لويس فى المنصورة وأسر الملك الفرنسى وجيشه . وما كان لذلك النصر أن يتحقق لولا متابعتها لسير المعارك مع الصليبيين ، وإعادة تنظيم الدفاعات ، وتدبر إرسال التعزيزات والمهمات ، بل إنها بذكائها الحاد انتقلت من الدفاع وأخذت زمام الهجوم الذى أسفر عن الإحاطة بالغزاة . لقد تمكنت شجرة الدر ، وهى فى مواجهة كارثة وشيكة ، أن تجمع مصر كلها وأن تحقق نصرا مؤزرا على الصليبيين . كما كان مجرد وجودها ، بعد أن

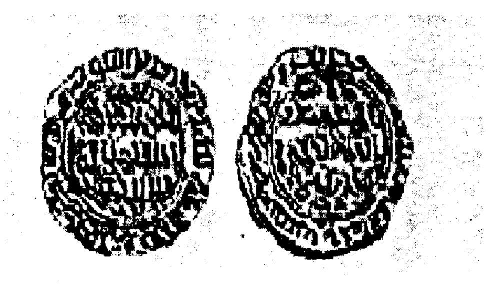
قتل المماليك توران شاه بعد الإنتصارعلى الصليبيين ، كفيلا بالمحافظة على النظام فى البـلاد .

٣ - سلطـانـة مصر

كان للدور الذى لعبتـه شجرة الدر بعد وفاة زوجها نجم الدين أيوب ، وتصرفها حيال الصليبيين وأسر الملك لويس التاسع ، أبلغ الأثر لدى المماليك بعدما شاهدوا ما تتصف به من حماس سياسى وحنكة ومهارة فى تصريف أمور الدولة فى ذلك الوقت العصيب الذى كادت أخطار الحرب والإستيلاء على دمياط أن تفت فى عضـد أي حاكم آخر . وارتضى المماليك أن تتبوأ شجرة الدر عرش مصر، برغم معارضـة الأمراء السوريين وإعلان رفضهم الإعتراف بها سلطــانة عليهم .

ويتبارى المؤرخون فى سرد الأسباب والدوافع التى جعلت المماليك يرضون بها سلطانـة عليهم ، فهل يرجع ذلك إلى لعلاقة التى تربطها بزوجها الراحل نجم الدين أيوب وابنهما خليل ؟ أم لزعامتها العسكرية والسياسية وقت الأزمات ؟ أم لحاجة المماليك إلى وجود صلة بين الأيوبيين وبين وجودهم بصورة قانونية ؟ لقد رفعوها لتتربع على عرش مصر وأطلقوا عليها لقب "أم خليل" ، وسمحوا بأن تكون هى أول امرأة تضرب العملة باسمها ويذكر اسمها فى صلاة الجمعة بالمساجد ، ولا شك فى أن أصلها المملوكى وانجازاتها الرائعـة أثناء الأزمات التى مرت بها البلاد جعلهم يخالفون التقاليد الإسلامية .

واستهلت شجرة الدر نشاطها السلطانى بمواصلة المفاوضات مع لويس التاسع ، وأبقت على حياة السجناء الفرنسيين ، بعدما استعادت دمياط وحصلت على فدية الملك الفرنس وقدرها مليون بيزنت ، بالإضافة إلى تصفية وضع الصليبيين فى مصر.



عملات معدنيــة ضربت باسم شجرة الدر

٤ - شجرة الدر تتخلى عن السلطنة

على أنها لم تستطع أن تبقى سلطانة على عرش مصر ، لقد أمضت الآن ما يقرب من ثلاثة أشهر تحكم البلاد والرعيّة والمماليك يساندونها. وكانت مصر آنذاك تابعة للخليفة العباسى فى بغداد ، وإن كان ذلك بصورة إسمية فقط . ولقد تلقت الخلافة العباسية نبأ تنصيب امرأة لتحكم مصر الإسلامية ببالغ الدهشة والإستنكار، فلم يحدث من قبل على مدى تاريخ الأمة الإسلامية أن حكمت امرأة بلدا مسلما ، وهذه هى المرة الأولى التى تصبح فيها امرأة سلطانة . وكما غضب الخليفة العباسى ، غضب أيضا قاضى القضاة الإمام العز بن عبد السلام ، وأصدر فتواه التى تركز على أن المفهوم الإسلامى لا يعطى المرأة الحق فى أن تصبح حاكما .

وأرسل الخليفة العباسى رسالة إلى أمراء المماليك يقول لهم فيها إنه " إن كانت الرجال قد نفدت أخبرونا كى نبعث لكم رجلا " . وسرعان ما انتشر النبأ فى مصر وخرج الناس فى مظاهرات غاضبة تنادى بتنحية المرأة انصياعاً للفتوى الدينية ، وفى سوريا تفجّرت ثورة أيوبية لدى وصول الأنباء باغتيال توران شاه .

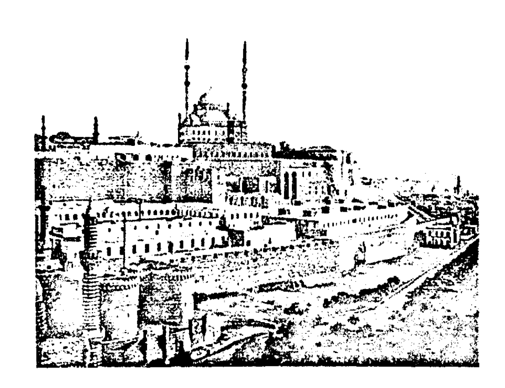
ولقد تصرف المماليك بسرعة واستجابوا لما نصحتهم به شجرة الدر، ونصّبوا عزالدين أيبك قائدا للمماليك ، وسرعان ما تزوج شجرة الدر ، ولتهدئة الأوضاع انتخب المماليك أحد أمراء الأسرة الأيوبية ليكون سلطانا مشاركا ، وظهر اسمه على وثائق الدولة وضرب إسمه على العملات . لكن الحاكم الفعلى كان المملوك عز الدين أيبك . ومرة أخرى تصرفت شجرة الدربحكمة وتجنبت أزمة داخلية قد لا تحمد عقباها ، فتنحّت عن عرش مصر . وهكذا ، ولفترة قصيرة لا تجاوز ثلاثة شهور حكمت شجرة الدر حكما فعليا بمفردها . وأرجأت ما كانت قد أعدته مما يناسبها من خطط تستطيع من خلالها مواصلة تحقيق الرفاهية لمصر . وآثرت أن يصبح تصريف أمور الدولة بإسم زوجها ، بدلا منها .

٥ - السلطان المملوك عز الدين أيبك

كان أيبك متلهفا على اعتلاء كرسى السلطنة ، فخضع لكل ما طلبته شجرة الدركي يتزوجها ، فهجر زوجته الأولى ، أم على ، ووافق على أن يأخذ بنصائحها فى كل أمر من الأمور .

ولم يكن عز الدين أيبك بالقائد الماهر المحنك ليكون على مستوى الزعامة ، فترك أمور الدولة تديرها شجرة الدر . وكانت هناك غلظة فى تصرفاته وخشونة فى تعاملاته ، خاصة مع أمراء المماليك. وعلى سبيل المثال ، قتل فى اليوم الثامن عشر من سبتمبر ١٢٥٤م أحد الأمراء بعدما أخضع ذلك الأميرتمردا قام به الأعراب فى مصر الوسطى ، مما جعل المماليك يشعرون بالخطر ، فهرب الكثير منهم إلى سوريا ومن بينهم المملوك بيبرس .

ومن الناحية الأخرى ، كان أيبك فى صراع دائم مع الأيوبيين فى دمشق وحلب وظل أغلب الوقت فى مناوشات وحروب معهم ، الأمر الذى أتاح لشجرة الدر أن تسيطرعلى مصر سيطرة فعلية من وراء الستار، وتمكنت من تحقيق الإستقرارالسياسي فى غياب زوجها الثانى أيبك طوال السنوات السبع التى أمضتها معه .



الفصل الخـامس

♣♣♣♣♣

النهـاية المـأسـاويـة

♣♣♣♣♣

١ - السنوات السبــع

٢ - أيبــك .. الزوج الملــول

٣ - انتقــام المرأة المكلــومة

٤ - مصرع عزالدين أيبــك

٥ - مصرع شجرة الــدر

♣♣♣♣♣

١ - السنـوات السبـع

انقضـت سبع سنوات وشجرة الدرفى عيشة راضية مع زوجها السلطـان عزالدين أيبك ، تشير عليه وتتصرف بما فيه صـالح مصر والمصريين بإسمـه ، وقلما كان يمضى أمرا دون الرجوع إليها وأخذ رأيها ، فصلتها وثيقة بأهل مصر ، خاصة عندما يكون غائبا فى الشام أو فى الحروب . ويحدثنا كثيرمن المؤرخين عن الحب الصادق المشبوب الذى ربط بينهما ، والسعادة البالغة التى كانـا يسقيانها . فهل كان أيبـك ذلـك الفارس المغوار الذى يأسر قلوب النساء ؟ وهل كانت شجرة الدرزوجة مثالية تعرف كيف ترضى زوجهـا وتسقيه رحيق الحب والهـوى ؟

ربما دفعتنـا شواهد الأحداث التى مرت بنا إلى أن نرتاب فيما ذكره المؤرخون من ذلك الحب السعيد ، إذ كانت شجرة الدر بارعة الجمال ، نعم ، لكنها كانت غاية فى الذكاء وذات شخصية قوية ومواهب وملكات عديدة تمكنتها من التعامل مع رجال الحرب والسياسـة . أما زوجها عزالدين أيبك ، فلم يكن بنفس القدر من قوة الشخصيـة والذكاء وصواب المسعى ، بل كانت فيه غلظة وطيش وجبروت مما دفع بعض أمراء المماليك إلى الهرب من طريقـه كما مر بنـا .

ولا نعرف المصادر التى استند إليها المؤرخون الذين أسهبوا فى الحديث عن ذلك الحب السعيد ، ولكننـا ننظر بعين الإهتمام إلى ما قاله عنهمـا المؤرخ الشهير ابن تغرى بوردى فى عبارته :

" كان أيبك فاقد اللب تماما تحت سحرها وسيطرتها ، ولم تكن له أية ذرة من سلطة حيالها ... " .

ويتفـق هـذا تماما مع ما حدث حينما اختاره أمراء المماليك ليكون زعيمهم برغم وجود أمراء آخرين أقدر منه وأفضل مثل بيبرس وقطز على سبيل المثال ، ولا ننسى أنهم اختـاروه عندما هددهم الخليفة العباسى بإرسال رجل يحكم مصر ... فهو إذن من أمراء

المماليك العاديين جاءوا به من الظل ليكون أول سلطان مملوكى من الرجال . كما يصدق وصف المؤرخ ابن تغرى من أنه كان متلهفا عليها وعلى أن يصبح طوع إشارتها ، ولا شك أن شجرة الدر سحرته عندما رضخ لكل شروطها وأهمها أن يهجر زوجته الأولى أم على .

وعلى ذلك ، يمكننا القول أن المماليك قد رفعوا أيبك لا لشئ إلا ليكون ستارا للشرعية التى تمكّن شجرة الدر من مواصلة حكم مصر ، بل والتى مكّنت المماليك أنفسهم من أن يقيموا دولة قوية شاسعة فى مصر وسوريا وفلسطين وجنوب الأناضول .

٢ - أيبك .. الزوج الملول

لا شك فى أن عز الدين أيبك كان يستند إلى مؤازرة رفاقه المماليك فى أموره كلها . فكان يستنصرهم فى حروبه فى سوريا ، ويقوَى بهم فى أي أمر من الأمور التى تعترضه . ولم يكن ذلك يتعارض مع الأخذ برأي زوجته شجرة الدر ، فهى السلطانة التى أفسحت له الطريق ليتبوأ عرش السلطنة ، وهى الزوجة الجميلة الذكية التى قهرت الملوك وهزمت الجيوش ، وهى المساعد والمعين فى تصريف أمور مصر حال غيابه فى الشمال ، وفوق كل ذلك فإن شجرة الدر ذات أصول مملوكية مثله تماما برغم سابق انتمائها إلى الأيوبيين كزوجة للسلطان الراحل نجم الدين أيوب ، وكأم للطفل الراحل فى طفولته خليل بن نجم الدين أيوب . وهكذا أخلد عز الدين أيبك إلى الحياة الوادعة بين ذراعى زوجته الجميلة شجرة الدر ، وأطلق عنان سلطنته بما له من زعامة على رفاقه المماليك . أليس هو السلطان الحاكم الذى ينحنى له الرجال ، ويقف له الزعماء والأمراء من الرفاق والأعداء على السواء ، وتنطلق الجيوش بكلمته السلطانية الآمرة ؟

على أن جذوة الحب لا بد لها من أن تخبو ، وأجل الحب حتما سوف يدنو ، ولباس المتعة لزماً سوف ينضو ، لا سيما مع ما كان عز الدين أيبك غارقا فيه من جبروت الملك وسطوة الحاكم .

ولم يسعفه خيالـه بأن لكل بداية نهـاية ، وكيف تكون هناك نهايـة وهو السلطان العظـيم الآمـر الناهـى ؟

وهكذا حدثتـه نفسـه بأن عليه أن يرشـف السعادة أينما يعثر عليهـا ، ويستمتع بالحيـاة قبل أن تتسرب من بين أصابـع عمره المديد ، هل سيمضـى عمره كله إلى جوار شجرة الدر؟ أليس من حقة أن تكون له زوجـة ثانية ، بل وثالثـة إن لزم الأمر ؟ هكذا حدثتـه نفسـه وزيّنت له الزواج من إبنـة والى الموصـل القوى بدرالدين لـؤلـؤ . صهر قوي ، وعروس جميلـة جديدة ، ويكفى زوجـه شجرة الدر تلك السنوات السبـع ملكـة سلطانـة ينزل لها عن كل رغباتهـا . فانـقاد إلى ما حدثتـه به نفسـه ، وعقد العزم على إنفـاذ هذا الذى زينتـه له نفسه الأمّـارة بالسوء .

٣ - انتقام المرأة المكلومـة

ويكاد المؤرخون أن يجمعوا على أن شجرة الدرقد انتوت الإنتقام منه فى فورة حنقها الذي أثارته بداخلها روح المرأة المجروحة . أليست هى التى مهّدت له الطريق ليجلس على عرش البلاد ؟ هل أساءت إليه حتى يهجرهـا إلى امرأة أخرى ؟ أهذا هو الجزاء الأوفى بعد أن صنعته وجعلت منه ملكا سلطانا ؟ هذا لن يكون أبدا ، ولا بد لأيبـك من عقاب على تلك المهانة التى ألحقهـا بمن صنعته .

وتدبرت أمرها ، وأعدت عدتها لمعاقبته على جحوده ، فأرسلت إليه كلمات بأن الشوق إليه يبرحهـا ، ودعته لزيارتهـا ليرى بنفسه ما أعدته لإسعـاده ولمفاجأته ، فجاءها فى التاسع والعشرين من إبريل عام ١٢٥٧م ، بعد أن أمضى بعض الوقت فى رياضة البولو ، ونظر إليها وهى فى زينتهـا وجمالها وجلالها ، فأثارت فيه ما مضى من حنين إليها ، واستمرأ كأس المحبة مع حبيبته المشتاقة إلى حبيبهـا الذى غاب عنها ، فدخل الحمام لينفض عن نفسـه العرق

والأتربة من أثر الرياضـة ، ولكى يتزين لها ولتلك الليلة التى ستضاف إلى ليالٍ مضت ، وحفولٍ انقضـت .

٤ - مصرع عز الدين أيبــك

وهنا يختلف المؤرخون . فمن قائل أن شجرة الدر أعدت لبعض وصيفاتها "قباقيب" خشبية وأدخلتهن عليه وهو يغتسل ويتزين ، وانهلن عليه ضربا بالقباقيب الخشبية ، إلى أن بلغ منه الجهد ، فأمرتهن بالتوقف عند هذا الحد ، وراحت تتخيل زوجها بعد أن ضربته ، هذا عقاب مناسب للملك ، حتى لا ينسى أن شجرة الدر ليست كأي امرأة ، وأنها لا تقبل أن تشاركها فى زوجهـا امرأة أخرى ، وأن لها انتقامها العنيف جزاءً وفاقاً لمن جحد ما لها من الأيادى والأفضـال ، وصوّر لها خيالها ندمه على أن فكر فى امرأة أخرى غيرها ، فى ابنة والى الموصل ، وأفاقت من تخيلاتها ، وأعادت الأمر للخادمات بالتوقف عن ضربـه ، لكن السيف كان قد سبق العذل وخرجن من الحمـام وقد أجهزن عليـه .

ويلخص المؤرخ ستيفن رانسيمان القصة كلها قائلا :

> "كان أول سلاطين المماليك ، أيبك ، مزعزعا فى سلطانه . ولكي يضفى الشرعية على نفسه تزوج الأرملة السلطانة شجرة الدر ، ليس هذا وحسب وإنما عيّن كسلطان مشارك طفلا من أمراء الأيوبيين . غير أن ذلك الطفل ـ الأشرف موسى ـ كان عديم الجدوى وسرعان ما اتضح أنه عبء بلا طائل ؛ وفى سنة ١٢٥٧م نشأ خلاف بين أيبك والسلطانة التى لم تكن على استعداد لأن يهين سلطانها من تعتبره مبتدئا حديث النعمة ، وفى ١٥ إبريل أعدت العدة كي يقتله الخصيان التابعون له فى حمـامه . وكاد مقتله أن يثير حربا أهلية .."

بوغتت شجرة الدر بمصرع السلطان ، وفكرت شجرة الدر ، لا بد من إخفاء واقعة القتل ، وأمرت بتجهيز جثمان عز الدين أيبك بملابس لائقة ووضعه على فراشه ، والإدعاء بأنه سقط من فوق جواده أثناء عدوه ، وتسبب ذلك فى إصابات أنهت حياته . وسرعان ما انتشر نبأ وفاه السلطان ، وبدأ أمراء المماليك يتوافدون على القصر . وكانت شجرة الدر ما تفتأ تروى واقعة سقوطه من على ظهر جواده ، لكنهم استمعوا إليها فى ريبة ، فقد شهد أيبك معارك كثيرة خاضها وهو يحارب من على ظهر جواده ، لكنها فى كل مرة كانت تصر وتؤكد الواقعة .

٥ - مصرع شجرة الدر

وأحيط بشجرة الدر، وواجهها أمراء المماليك ، فلم يكن أمامها إلا أن تعترف بأنها أرادت الإنتقام ، لكن لم يخطر ببالها أبدا أن ذلك سيؤدى إلى وفاته .

وتشاور أمراء المماليك فيما يصنعون ، لقد آزروا شجرة الدر بادئ الأمر ، وصنعوا منها ملكة وسلطانة ، وأحاطوها برعايتهم وحمايتهم ، حتى فى أصعب الأوقات عندما لفظها الخليفة العباسى وقاضى القضاة ، وباركوا زواجها من عز الدين أيبك ، وساعدوها على أن تصبح زوجة السلطان ، فكيف ترتكب هذه الفعلة النكراء ؟ وتتنكر على هذا النحو البغيض . على أنهم انقسموا على أمرهم ، وانحاز بعض الأمراء إلى جانبها ، وأعادوا ما كان لأيبك من قسوة وغلظة وجبروت ، فضلا عن أن وجود شجرة الدريعتبر ضروريا كرمز للشرعية ، فهى أرملة نجم الدين أيوب ، وأم إبنه خليل ، ولها من الأيادى على مصر وعلى المماليك أنفسهم الشئ الكثير البادي للعيان . ورأى البعض الآخر أنها قد ارتكبت جريمة مرعبة . وكاد الأمر أن يتطور إلى حرب بين الفريقين . وأخيرا انتصر أعداؤها

وحُبست فى أحد أبراج القلعـة ، ونودي بعلى ، بن عز الدين أيبك السلطان الراحل ، سلطانا جديدا ليخلف والده الراحـل .

ويحدثنا أحد المؤرخين أن شجرة الدركانت قويـة فى مواجهـة الموت كما كانت قوية فى مواجهـة المدلهمات . فلمّا أيقنت من نهايتها أسرعت إلى خزانـتها واستخرجت حليهـا ومجوهراتهـا جميعـا ، وسحقتها سحقاً حتى لا تتزين بها غريمتهـا أم على زوجة السلطان الأولى . وفى هذه الرواية شك كبير كذلك ؛ فكيف لشجرة الدر، وهى سجينة فى برج بالقلعــة ، أن أن تسرع إلى خزانتها وتستخرج حليهـا ، ثم تسحقها جميعا حتى لا تتزين بها غريمتها أم على كما يقول المؤرخ ؟ .

وفى خارج القصر هدأت الجموع التى أثارهـا انتشار النبأ ، ورضى الجيش بالسلطـان الجديد بعد أن كان قد انقسم على نفسـه بين مؤيد لشجرة الدر ومنكر لها ، وتوقفت أعمال الشغب التى كانت قد انتشرت فى القاهـرة ، وتجنـب أمراء المماليك شبح الفتنـة التى كانت تتهددهم ، واقتيدت شجرة الدر إلى بلاط السلطـان الجديد حيث كانت غريمتها أم على ، زوجـة أيبك الأولى التى أصبحت دون انتظار منها أم السلطان الجديد .

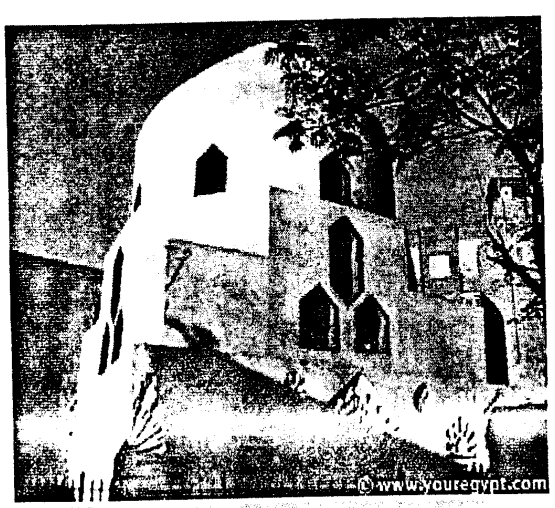
وتمايلت أم على فرحـا ، فكانت تنتظـر فرصـة كهذه منذ سبع سنوات ، منذ أن هجرها زوجهـا أيبـك وهجر معها ابنهمـا على . إن ساعة الإنتقام قد أزفت . وأمرت خادمـات القصر بالدخول على شجرة الدروضربها بالقباقيب حتى تفارق الحياة . لقد أعدّ ت لغريمنتها نهاية تتفق تماما ونهاية زوجها عز الدين أيبك .

ودخلت عليها خادمات السلطان الجديد وانهلن عليها ضربا بالقباقيب حتى فارقت الحياة . وألقي جثمانها من فوق أسوار القلعـة ، وبعد أيام قليلـة حُمِل جثمانها ودفن فى الضريح الذي كانت قد بنتـه لنفسها . وهكذا انتهت حياة المرأة التى غيّرت وجه التاريخ ، المرأة التى وصفها المؤرخ المعاصر لها إين تاغرى بوردى قائلا :

"كانت متديّنة تقية ورعة ، وكانت يقظة تماما لتحقيق الرفاهية لرعاياها ... وكانت تتميز بحضور قوى للغاية ..." . وأنهى تأبينه لها مضيفا : "إن شجرة الدر شخصية فريدة فى الإسلام " .

أما غريمتها ، أم السلطان الجديد ، أم على ، فكانت قد نذرت أن تدعو كل سكان القاهرة إلى وجبة من الحلوى فى نفس اليوم الذى تتخلص فيه من غريمتها . وعندما ماتت شجرة الدر ، أمرت طهاة القصربإعداد تلك الوجبة ، لكن الوقت لا يسمح بالإنتهاء فى نفس اليوم ، فجاءتهم بوصفة طهى بسيطة للغاية : كميات ضخمة من الخبز ، يجرى تسخينها إلى درجة الإحمرار ، وتغمرفى اللبن والعسل ثم تغطى بطبقة سميكة من اللوز والزبيب والصنوبر . وهى وجبة الحلوى اللذيذة التى تُقدم فى المطاعم فى أيامنا هذه ، قد سُمِيَت باسم أول من صنعها ، أم على .

♣♣♣♣♣



ضريح شجرة الدّر بالقاهرة

الفصل السادس

♣♣♣♣♣

فى مفتــرق التــأريخ

♣♣♣♣♣

١- التاريخ ، والتأريخ

٢ - مؤرخو الحملات الصليبية
جوناثان سميث : مقدمة تارخ أكسفورد المصور
سيرستيفن رانسيمان : تاريخ الحملات الصليبية
جوزيف ستراير: حملتا القديس لويس الصليبيتان
جيـب : الأيوبيـــون
جوناثان سميث : الحملات الصليبية ، تارخ موجز

٣ - دارسون آخرون
جان ريتشارد : القديس لويس ملك فرنسا الإقطاعية دعامة الأرض المقدسة
كارن أرمسترونج : الحرب المقدسة، الحملات الصليبية ووقعها على عالم اليوم

٤ - مؤرخون يستخدمون مصادر شرق أوسطية
جون جلوب : جنود الحظ السعيد : قصة المماليك
روبرت اروين : الشرق الأوسط فى العصور الوسيطة
ديزموند ستيوارت : القاهرة ، خمسة آلاف وخمسمائة سنة
مصطفى زيادة : سلاطين ا لمماليك حتى عام ١٢٩٣م
ستيفن همفري : من صلاح الدين إلى المغول
سيدة صديق : بيبرس الأول ، سلطان مصر
عبد العزيز خويطر: بيبرس الأول ، مجهوداته وانجازاته

٥ - نساء مؤرخـــات
سوزان ستافا : أبعاد سلطة النساء فى القاهرة التاريخية
فاطمة ميرنيسى : ملكات الإسلام المنسيــات

١ - التـاريخ ، والتـأريخ

يختلف المؤرخون فى تناولهم لشجرة الدراختلافا بيّـنا . فهناك من يركزعلى مجرد أحداث معيّنة من حياتها تتصل مباشرة ببؤرة اهتمامهم . وهناك آخرون ينسبون إليها دورا إما سلبيـا أو إيجابيـا ، بحسب ما تمليه عليهم خطة الدراسة التى يتقيّدون بها . ولا ينصفها مؤرخو الحمـلات الصليبية ، فيهبطون بها إلى مجرد دور ثانوي فى تصويرهم للأحداث . كما أن مؤرخى العصور الوسيطة يهمّشون دورها لأسباب شتى . وبالعكس ، نجد السيدات المؤرخات يرتفعن بشجرة الدر الى الصدارة ويسلـّطن عليها أضواءً ساطعة .

ارتفعت شجرة الدر وتربعت على عرش السلطنة بعد مصرع توران شاه ، وحكمت مصر حكما ناجحا لفترة وجيزة . وتظل الأسباب التى جعلت المماليك يقبلون بذلك مثار جدل كبير، فهـل يرجع ذلك إلى علاقتها بنجم الدين أيوب وبابنهما خليـل؟ أم اعترافا باقتدارها السياسى والعسكري فى وقت الأزمة التى تمثلت فى تهديد لويس التاسع بعدما شاهدوه من إنجازاتها ، من مواصلة المفاوضات التى بدأت بين توران شاه ولويس ، والإبقاء على أرواح السجناء الفرنسيين ، واستعادة دمياط ، والحصول على فدية الملك الفرنسـى ، فضلا عن تصفية الصليبيين فى مصر؟ ووربمـا كان هناك سبب ثالـث ، فالمماليك كانوا فى حاجـة إلى صلة تربطهم بالحكام الشرعيين للبلاد ، ولذا رفعوها إلى العرش ومنحوها لقب "أم خليل" وسمحوا لها بأن تصبح أول سلطانة تـُضرب العملة باسمها ويـُذكـر اسمها فى المساجد يوم الجمعة . وذلك له مغزاه ، إذ يدل على أن المماليك كانوا هم القوة الحقيقيـة المسيطـرة على الأمور ، ولنا أن نستنتج أنهم هم الذين آزروا شجرة الدر سلطانـة بمفردهـا ، وراحو يراقبون النتائج ، فلمـا اعترض الخليفة العباسى وأرسل يهددهم ، جاءوا بعزالدين أيبك سلطانا ، ثم إنهم تدبـروا زواجـه من شجرة الدر التى تمثل الشرعية السلطانية ؛ فهى أرملـة آخر الأيوبيين ، وأم طفلهما خليل وبذا صنعوا سلطانا من المماليك ، ومعه شجرة الدركرمز للأسرة الأيوبية

٢ - مؤرخو الحملات الصليبيّة

لم يلتفت مؤرخو الحملات الصليبية فى القرن العشرين الإلتفات الواجب لشجرة الدر، إذ انصب الإهتمام على التأريخ للحملات الصليبيــة وعظام شخصيات تلك الفترة من الذين تركوا بصماتهم عليها . وتجدر الإشارة إلى ما تقوله المؤرخة فاطمة ميرنيسى من أن المؤرخين الفرنسيين "يتذكرون" شجرة الدرودورها فى المنصــورة لوجود الصلة المباشرة بينها وبين هزيمة الفرنسيين . فماذا عن مؤرخى الحملات الصليبية الآخرين ؟ هل يشاركونهـا هذا "التذكـــر" ؟

Jonathan Riley-Smith's introductory essay to *The Oxford Illustrated History of the Crusades*,

جوناثـان ريلى سميث ــ المقال الإفتتاحى لتاريخ أكسفورد المصور للحملات الصليبيــة

يتتبع جوناثان ريلى سميث فى مقاله الإفتتاحى لتاريخ أكسفورد المصوّر للحملات الصليبية . التأريخ الغربى للحملات الصليبية فى القرن العشرين ، وينتهى إلى أن شجرة الدر، فضلا عما تثيره من فضول تاريخى يستحوذ على الجميع ، "... ما هى إلا امرأة لا تستحق ، وخاصة لكونها مسلمة ، أكثر من ملخص ضئيل ، أو ربما بضع صفحات".

وهكذا ، ومن أجل ذلك ، يختلف ما يرويه الدارسون الغربيون من حيث الكم ومن حيث المحتوى بحسب الزمن الذى جرت فيه الأحداث . ويكاد جوناثان أن يقول إن الحروب الصليبية مكانها الممالك الصليبية فى فلسطين ، أما حملة لويس الفرنسى على مصر فهى وإن كانت صليبية فى أصلها ، فإن أحداثها جرت فى غير مكانها ومن ثم فلا حاجة إلى التركيزعلى امرأة تعاملت مع حملة القديس لويس الفرنسى .

Sir Steven Runciman's *A History of the Crusades*

سير ستيفن رانسيمان : تاريخ الحملات الصليبية

بينما اكتفى جوناثان بمجرد جملتين اثنتين عن شجرة الدر، كرّس السير ستيفن رانسيمان ، فيمؤلفه الشهير تاريخ الحملات الصليبية ، خمس صفحات لموقفها فى ميدان المعركة وفى البلاط الملكى . وكشف عن تفاصيل كثيرة تتعلق بسيرتها السياسية ، فأوضح لنا كيف أنها جمعت مصر كلها من خلال تحالفها مع فخر الدين نائب السلطان أثناء مرض الأخير وجمال الدين محسن كبير ياورى السلطان ، وأرسلت فى استدعاء توران شاه من الجزيرة حيث كان واليا عليها لأبيه السلطان . ويسهب رانسيمان فى الإستعانة بكل من المصادرالتاريخية المسيحية والإسلامية ، مثل استشهاده بأبى الفدا، وأبى شامة ، وابن خلكان ، وجوانفيل Joinville وماثيو باريس Matthew Paris ، ويقول رانسيمان إن شجرة الدر كانت ما تزال فى حاجة الى مؤازرة المماليك لكى تحكم وذلك فى ثلاث مراحل : فى أول عهدها بالسلطنة عندما تخيّل الصليبيون أن وضعها يعوزه الإستقرار، وعندما كانت تواجه تهديد توران شاه ، وبعد الإنتصار على الصليبيين . وحقيقة الأمر، أن شجرة الدر لم تتول السلطة فى ثالث تلك المراحل إلا لأنها كانت تمثل الشرعية الأيوبية التى كان زوجها الثانى أيبك فى حاجة إليها أيضا كسلطان جديد . ولذلك لم تستطع شجرة الدر السيطرة على أمور البلاط فى العقد الأخير من حياتها السياسية . كما لاحظ رانسيمان أنها لم تحظ بمؤازرة أغلب أمراء المماليك فى الجيش . لقد كان وضعها فى الصورة السياسية يتعلق بصلتها بالسلطانين نجم الدين أيوب وتوران شاه ، وما أن قتلت زوجها الثانى السلطان عزالدين أيبك فى لحظة يأس حتى انقلب عليها أغلب المماليك للإطاحة بها . وبعد أيام ثلاثة لقيت السلطانة مصيرها . إن رواية رانسيمان تركز على مؤازرة المماليك باعتبارها العامل الرئيسى وراء نجاح شجرة الدر وفشلها .

Joseph R. Strayer's *'The Crusades of St. Louis'*

جوزيف ر. ستراير : حملتا القديس لويس الصليبيتان

يعالج جوزيف ستراير باقتضاب المرحلة الأولى من سيرة شجرة الدرمصورا قدرتها وذكائها السياسى فى تماسك المملكة الأيوبية . ومع ذلك ، وكشأن رانسيمان من قبله ، يعرض جوزيف ستراير ظروفا متداخلة تكاد تقلّص قدرة شجرة الدر بقوله "إن الذى ساعد على تكيفها فى موقع السلطة التقدم البطئ للصليبيين" ، ويجتهد ستراير فى توضيح افتراضه هذا بالإستشهاد بالصعوبات الإضافية التى واجهها الجيش الفرنسى فى تقدمه نحو المنصورة . ولا يذكر انتخاب المماليك لشجرة الدر فى روايته تلك . وفى واقع الأمر يذكر ستراير ضمنا أن شجرة الدرلم يكن لها أية سلطة فى السياسة المصرية على أي وجه بسبب الإنقلاب الذي قام به المماليك . ويوضح فى مؤلفه أن المماليك إنما احتفظوا بالوضع السياسى لشجرة الدر طالما أتاح لهم ذلك الإفادة منها ، ثم إنها بعد ذلك تختفى من الصورة فى التاريخ الذى كتبه . ولا يذكر ستراير أية مصادر مباشرة ويترك للقارئ مجرد الظن إذا ما أراد معرفة مصادره التاريخية . وعموما ، فإن تاريخه يعتبرها ذات فضل فى الوصاية على البلاد فى غيبة توران شاه بعد موت والده السلطان أيوب ، لكنه يزيحها جانبا فيما بعد ويضع المماليك مكانها .

H. A. R. Gibb's *The Aiyubids*

هـ . أ . ر . جيب : الأيوبيون

يورد جيب شجرة الدر فى وضعها السلطانى بعد انتصار المماليك وكشأن ستراير، يؤكد جيب أنه ما أن شعر المماليك بأن الخطر يتهدد وضعهم حتى فضّلوا الإبقاء على وضعهم والتخلى عن السلطة الملكية . وقد أدى هذا التعقل من جانبهم إلى اغتيال توران شاه ، برغم أن جيب ذكر أيضا أن ضباط المماليك ... "أعلنوا شجرة الدر

سلطانة مصر وملكة المسلمين " . ويذكر جيب تفاصيل الصعوبات السياسية التى تلت ذلك مما أثاره بقايا الأيوبيين فى سوريا وفلسطين والذين انتخبوا سلاطين آخرين كي يحتفظوا بمصر فى الأسرة الحاكمة الأيوبية . ومع ذلك ، وفى ضوء هذا الوضع تزوجت شجرة الدر عز الدين أيبك ... وتنازلت عن السلطنة لصالحه . وبعد هذه النقطة ، يستخدم جيب السلطان المشارك لأيبك ، وهو الأشرف موسى الثالث ، لتأكيد الصلة بالخط الأيوبى وشرعيته. ولا تظهر شجرة الدر بعد ذلك عند جيب ، وإنما تذوب فى الخلفية السياسية ولا يذكر لها جيب دوراً رئيسيا قامت به .

Jonathan Riley-Smith's
The Crusades: a Short History
جوناثان ريلى سميث : الحملات الصليبية - تاريخ موجز

يرسم جوناثان فى كتابه المذكور صورة صراع حاد على السلطة حدث بعد وفاة السلطان نجم الدين أيوب سنة ١٢٤٩ م ، توحى بأن سلطة شجرة الدر كانت ترتكز على التحول الذى طرأ على مصالح المماليك ليس إلا. وبعد اغتيال توران شاه نادى المماليك بشجرة الدر ، محظية الصالح السابقة ، "ملكة" . ويذكر جوناثان أن الأصول التركية ساعدت شجرة الدرعلى أن تتبوأ هذا المنصب ، وأن أيبك أصبح زوجها . ويذكر باقتضاب اغتيال شجرة الدر لزوجها أيبك وسرعان ما قُتلت هى نفسها بعد ذلك . وفى هذا الجهد الذى بذله جوناثان فى رسم صورة هذه الـ "ملكة" على نحو غير لائق ، لا يذكر شيئا عن دورها فى الإبقاء على الحكومة المصرية قبل وصول توران شاه أو قبل دورها الذى حكمت فيه البلاد بعد مقتله . وفى تقليصه للقصة بعد عام ١٢٥٠ م ، يرسم صورة شجرة الدرعلى أنها مجرد دمية مملوكية .

3 - Other Scholars
٣ - دارســـــون آخـــــرون

Jean Richard's *Saint Louis: roi d'une France féodale soutien de la Terre sainte*

جان ريتشارد - القديس لويس : ملك فرنسا الإقطاعية دعامة الأرض المقدسة

فى التواريخ الموجزة للحملات الصليبية يذكر بعض الدارسين شجرة الدر فى سياق أحداث المنصورة . وفى رواية جان ريتشارد: "القديس لويس ملك فرنسا الإقطاعية دعامة الأرض المقدسة" ، لا يذكر دور شجرة الدر إلا فى المنصورة وخاصة عندما اتفقت شجرة الدر مع فخر الدين على إخفاء نبأ وفاة السلطان حتى وصول توران شـــاه .

Karen Armstrong, in *Holy War: the Crusades and their Impact on Today's World,*

كارين أرمسترونج - الحرب المقدسة الحملات الصليبية ووقعها على عالم اليـوم

لا يذكر أرمسترونج سوى هذه السطور القليلة : "...عندما زحفت كتيبة صليبية قوية على المنصورة فى العشرين من نوفمبر، شمّر المسلمون عن سواعدهم للقتال المرتقب ، وعندما مات السلطان أخيرا بعد ثلاثة أيام ، تصرفت شجرة الدر بسرعة وبكفاءة وكتمت خبر وفاته". ويتلاقى دارسون آخرون وهذه النظرة الإجمالية ، فيذكركريستوفرمارشال فى مؤلفه الحرب فى الشرق اللاتينى ١١٩٢- ١٢٩١ م Christopher Marshall, in *Warfare in the Latin East, 1192-1291*، دورشجرة الدر فى المنصورة ، ولا شئ بخلاف ذلك يستحق الذكر . ويذكر أولريتش هارمان زواج

أيبك والسلطانة مضيفا اعتراض الخليفة العباسى والتآمر على أيبك ، لكنه فشل فى ذكر دور شجرة الدر فى الترتيبات الدفاعية للتصدى لغزو لويس . وتظهر اختلافات أخرى فى تلك الروايات . فعلى سبيل المثال ، يذكر أرمسترونج شجرة الدر كمجرد "سلطانة" ، ويقدمها على أنها تتصرف من تلقاء ذاتها ، بينما يضيف مارشال القادة العسكريين والمستشارين الآخرين الذين خدموا السلطان المتوفى ، مضيفاً أنها كانت محظية أيوب . وأخيرا يشير هارمان إلى السلطانة على أنها أرملة أيوب . وأغلب هذه الروايات تستند إلى مصادر غربية أساسية أو ثانوية . وليس هناك سوى مارشال الذي يحافظ على بعض التوازن فى استشهاده بمرجع ابن عبد الظاهر "حياة بيبرس" ، والمقريزي "تاريخ مصر" ، وزيادة "سلاطين المماليك حتى ١٢٩٣ م" Ziada's `Mamluk Sultans Until 1293 ، وإيروين "الشرق الأوسط فى العصور الوسيطة : سلاطين المماليك الأوائل ١٢٥٠- ١٣٨٢م **Irwin's The Middle East in the Middle Ages: *the Early Mamluk Sultanate 1250-1382*.** ، إن هذه النصوص توفر بعض الفقرات عن حياة وسيرة شجرة الدر، لكنها لا تعطى صورة كاملة لحياة السلطانة ، وبالأحرى فإن وجود شجرة الدر فى هذا التصوير الدراسى يعكس ما يُرى على أنه دور "ثانوي" فى مد وجزر حملة لويس التاسع الأولى . وبالمثل ، فإن مصادر التأريخ الشرق أوسطية تميل إلى أن تعطى روايات من جانب واحد عن سيرة شجرة الدر ، وإنما لأسباب مختلفة .

٤ - مؤرخون يستخدمون مصادر شرق أوسطية

وفضلا عن تلك الروايات الموجزة ، يطور دارسون آخرون رواياتهم التى تتناول قصة شجرة الدر بكثيرمن التعقيد ، فلماذا يعالجون هذه السلطانة على هذا النحو بينما يمر نظراؤهم بسيرتها مرورالكرام؟ إن امكانية الوصول إلى المصادر العربية يتيح لهم

مجال تفصيل أكبر ويتيح لهم فرصة الإختيار ، كما أن هذا التفصيل الأكبر قد يعزى إلى حقيقة أن شجرة الدر تتناسب مع الخطة العامة لدراساتهم على نحو أفضل من الروايات الأخرى المذكورة أعلاه . وهناك مؤرخون آخرون ، مثل جلوب وإروين وهمفرى ، يصفون سيرة شجرة الدر على النحو الذى يؤثر فى التاريخ المصرى . وهناك آخرون ، مثل أمين معلوف ، يقدمون مجالا من الأوصاف لتشريف شجرة الدر وغيرها من أبطال الصراع ضد الحملات الصليبية . وكما يصف أمين معلوف فى مقدمته : "... إن الفكرة الأساسية لهذا الكتاب بسيطة : عرض قصة الحملات الصليبية على النحو الذى شوهدت به ، وبقيت حية نابضة ، وسُجّلت فى الجانب الآخر" أي فى المعسكر الغربى . لقد أثبتت شجرة الدر أنها "شخصية من لدن العناية الإلهيّة" ، وذلك من خلال اقتدارها فى مواجهة تهديد غزو لويس التاسع .

إن رواية معلوف ترسم شجرة الدر كامرأة قوية أمسكت بزمام السلطة والسيطرة فى يديها حتى النهاية . وبالإضافة إلى ما ذكر من الأحداث التى ورد وصفها لدى أغلب المؤرخين ، يقدم هذا المؤلف صورة فريدة للسلطانة تواصلت على مدى خطته الدراسية فى روايته لتاريخة الذى كتبه . أولا ، أورد قائمة بعدة أحداث جسام ، لم تذكر فى الروايات الأخرى الثانوية سوى البعض منها ، بما فيها وصايتها لحين وصول توران شاه ، وإخفاء موت نجم الدين أيوب ، وتوليها السلطنة ، واغتيال أيبك ، وما تلاه من مصرعها . كما ذكر معلوف أن السلطانة حكمت كأم خليل ، وضُربت العملة باسمها ، وعملت على أن يذكر اسمها فى صلاة الجمعة فى المساجد . وفضلا عن ذلك ، يعزو إلى شجرة الدر الفضل فى نجاح المفاوضات مع لويس ورحيل الصليبيين من مصر . ومع ذلك ، تظل هذه الرواية فريدة بين نظرائها . أولا ، وبعد الأزمة التى أعقبت موت نجم الدين أيوب ، يروى معلوف أن شجرة الدر طلبت من فخر الدين أن يكتب رسالة بدعوة المسلمين للجهاد ؛ وبعد ذلك ، وأثناء اغتيال أيبك ، تضرب السلطانة زوجها وتحك عينيه بالصابون . ثم يروى معلوف أن شجرة الدر ، بعد أن شاهدها ابن أيبك وهى تحمل سلاح الجريمة

تعثرت وارتطمت رأسها بالأرض الرخامية على نحو كاد يودى بحياتها فى فرارها من المماليك الذين كانوا يلاحقونها . وتتضمن المصادر التى استند إليها معلوف تاريخ جمال الدين بن واصل عن الأيوبيين والمماليك ، بالإضافة إلى ملحمة العصور الوسيطة الشعبية "سيرة الملك الظاهر بيبرس" . واتساقا مع الخطة التى وضعها معلوف ، فقد اختار أفضل وصف لسيرة السلطانة الواردة فى التواريخ . وكما يذكر فى رواية سقوطها : "مهما تكن هذه الرواية عالية الرومانسية ، فإنها تتميز باهتمام تاريخى أصيل بقدر ما هى انعكاس مخلص بكل الإحتمالات لما كان يردده العامة فى شوارع القاهرة فى إبريل ١٢٥٧م ، بعد المأساة مباشرة . وفى هذه الرواية يطلق معلوف على سقوط السلطانة وصف "مأساة" . إذ أنها حققت انجازات عظيمة فى حياتها وأدارت دفـة السفينة المصرية حتى فى أكثر المياه تلاطمـا ، لكنها فى النهاية تحطمت على الشاطئ بفعل القوى السياسية التى لم تستطع السيطرة عليها .

John Glubb's *Soldiers of Fortune: the Story of the Mamlukes*

جون جلوب - جنود الحظ السعيد : قصة المماليك

يعالج جلوب على نحو خاص سيرة شجرة الدر فى أعقاب موت نجم الدين أيوب . وكما ذكر فى بداية كتابه ، يذكر ما يذكره الرجل العادى عن الأحداث التاريخية ، ومن ثم فهو لا يذكر أية مصادر لملاحظاته . وفى بداية روايته يصور جلوب شجرة الدر كوصيـة تسيطر تماما على الأمور بعد رحيل السلطان وبعد أن أخذت على عاتقها قيادة الجيش المصري فى تصديه لجيش لويس الفرنسى فى المنصورة. ويفترض جلوب ، فى تبرير الأسباب التى جاءت بها وأجلستها على عرش السلطنة ، أن "المماليك كانوا من البدو الأتراك الذين كانت نساؤهم يشاركن فى الأمور العامـة بصورة تجاوز ما ينبغى أن تكون عليه النساء المسلمات . وبحماس شديد آزروا شجرة الدركي تصبح ملكة مصر "لشجاعتها التى أظهرت

جدارتها للحكم" . كما ينتقد جلوب دور المستعصم فى تخلى شجرة الدر عن السلطنة وزواجها من أيبك قائلا إنه لم يكن زواجا سعيدا نظرا لمفهوم كل منهما عن سلطة شريكه ، مضيفا رفض شجرة الدر أن تفصح لأيبك عن مكان كنز نجم الدين أيوب ، كما أضاف محاولة أيبك الزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ والى الموصل وابنـة الملك المنصور أمير حماه الأيوبى ، ومعاملة أيبك للمماليك البحريـة ، وفى النهاية تفجّرت تلك الصراعات في صورة اغتيال أيبك وما تلى ذلك من اعتقال شجرة الدر وإعدامها . وبهذه الطريقة يقدم جلوب نظرة عاطفية وبطولية عن السلطانة .

Robert Irwin's *The Middle East in the Middle Ages: the Early Mamluk Sultanate 1250-1382*

روبرت إيروين - الشرق الأوسط فى العصور الوسطى : سلاطين المماليك الأوائل ١٢٥٠-١٣٨٢ م .

يقدم روبرت إيروين للقارئ رواية موجزة عن سيرة شجرة الدر من سنة ١٢٤٩ م قـُدُمـا ، مستهلا وصف دور السلطانة أثناء الحكومة المؤقتة فى أعقاب موت نجم الدين أيوب قائلا : "يبدو أن الشخصيات الرئيسيّـة فى هذا المجلس الرئاسـى هى شجرة الدر ... فخرالدين بن الشيخ ... بهاء الدين بن حنـا ، وجمال الدين محسن". وعلى غرار مارشال وأرمسترونج ، يعزو إيروين الفضل لشجرة الدر لعزمها الراسخ وقيامها بدور قوي فى محافظتها على السلطنة المصرية أثناء الأزمة . ومع ذلك ، فإنه يتخطى دور السلطانة فى المعركة وما أعقبها من مفاوضات ليمضى مباشرة إلى صراعها على السلطة مع أيبك . ويفترض إيروين أن تتويج شجرة الدر كان "شـاذا" ، وأنها حكمت دون أية مساعدة حقيقية . وعندما عارض الخليفة العباسى المستعصم توليها السلطنة اضطرت إلى التنحى والتزوج من أيبك . ثم يقول إنها أ ُبعدت عن الساحة السياسية إذ أن أيبك والأشرف موسى ، وهو طفل أيوبى ، كانا شريكين فى السلطنة على الرغم من أن الأول سك العملة باسمـه . و لا تظهر شجرة الدر

فى هذا الجزء من الرواية إلا عندما خططت لإغتيال أيبك ، وذلك فى الأحداث اللاحقة المؤدية إلى موتها . وعلى هذا النحو يرسم إيروين شجرة الدر كشخصية قوية فى مجابهة الحملة الصليبية ، ومع ذلك تصبح فى هذه الرواية ضحية الثورة السياسية التى ساعدت هى نفسها على إيجادها .

Desmond Stewart's *Cairo: 5500 Years*
ديزمونت ستيوارت - القاهرة : خمسة آلاف وخمسمائة سنة

يورد ديزموند ستيوارت سيرة شجرة الدر بصورة كاملة من البداية إلى النهاية . وبالإضافة الى سرد الأحداث المعتادة يبدأ بالتذكيربأن السلطانة ذات أصل "تابع من مجتمع بدوى النساء فيه سافرات ولهن مكانة تتساوى مع الرجال" . ثم يورد تفاصيل دور شجرة الدر فى المنصورة ، ورفعها لتتربع على عرش السلطنة وحكمها كأم خليل ، وتخليها عن السلطنة ومواصلتها للحكم من وراء الستار بعد زواجها من أيبك . كما يفسر ديزموند كيف اكتشفت شجرة الدر من أحد المماليك التابعين لها تخطيط أيبك للزواج من ابنة أمير الموصل ، وكيف أنها دعت أحد أعداء أيبك السوريين ليحضر الى مصر ليتزوجها ويصبح سلطانا . ومع ذلك ، وكما يخبرنا ديزموند ، ..."إما أن الأمير السورى خشى وجود مكيدة وراء الإقتراح ، وإما أنه شعر بأن مقترحات الملكة ما هى إلا توسلات ناقة ترغى وتزبد . وفى شعوره بالخطر استشار أمير الموصل الذى قام بدوره بتحذير أيبك ... " .

وبرغم ذلك التحذير ، امتطى أيبك جواده وذهب الى القلعة ، وبعد أيام قليلة اغتيل فى الحمام . ويلاحظ ديزموند ستيوارت أن شجرة الدرحاولت إيقاف الخدم عن مواصلة ضرب أيبك قبل فوات الأوان ، لكن الخدم واصلوا الضرب إلى أن مات . ويقول إنها حاولت إخفاء تلك الفعلة ، بل وحاولت الزواج زعيم المماليك الجديد ، إلا أنها

حُبِسَت فى القلعة ، ومن ثم قام السلطان الجديد ، على بن أيبك ، بتسليم شجرة الدر لأمه التى جردت شجرة الدر من ملابسها وأهانتها قبل أن تضربها خادماتها حتى الموت . ثم ألقت بجثة شجرة الدر من على سور القلعة فى حفرة "لإطعام الكلاب الضالة التى تزعج سكان النواحى الصحراوية فى شرق المدينة" . إلى أن جُمعت أخيرا بقايا السلطانة السابقة ودفنت فى الضريح الذي أقامته لنفسها . إن ديزموند ستيوارت يصوّر شجرة الدر على أنها امرأة أحكمت قبضتها على سياسات القصر والحريم حتى سقوطها المأساوى .

Mustafa Ziada's *The Mamluk Sultans to 1293*

مصطفى زيادة - سلاطين المماليك حتى عام ١٢٩٣ م

يورد مصطفى زيادة ، فى تعارض شديد مع أغلب المؤرخين المذكورين أعلاه ، تفاصيل صعود شجرة الدر إلى السلطة وسيرتها السياسية المبكرة . قائلا إن سلطانة المستقبل بدأت تؤثر فى الأحداث كأمة مملوكة فى حريم كل من الخليفة والسلطان نجم الدين أيوب . وبعد إسهاب مصطفى زيادة فى تفاصيل سيرتها المبكرة فى بلاط نجم الدين أيوب ، يورد دورها فى إخفاء موت السلطان فى المنصورة . ويعزو إليها فضل الإنتصارعلى جيش لويس التاسع ، مع ملاحظته مصرع قائد الجيش ، فخر الدين ، فى كمين مسيحى أثناء تواجده فى الحمام . وبعد أن يصف مصطفى زيادة انتصار شجرة الدر على الصليبيين ، يتحول إلى سيرتها المتأخرة ، فيعتبر أن تسميتها سلطانة ورفعها لتتربع على كرسى السلطنة بعد اغتيال توران شاه لم يكن سوى اجراء مؤقت . وتستند نظرة مصطفى زيادة على أن المماليك استغلوها كمخلب أمام منافسيهم على عرش مصر . وقد أيدت شجرة الدر معاهدة توران شاه مع لويس التاسع ، وأغدقت العطايا والتعيينات وخلعت على المماليك البحرية إذ كانت مدينة لهم بوضعها . ثم يصور مصطفى زيادة اعتراض الخليفة على المنصب الجديد لمحظيته السابقة ، وزواجها من أيبك بعد تخليها عن

السلطنة فى يوليو ١٢٥٠ م . وربما أدت غيرة المماليك البحرية من نتخاب أيبك إلى مساعدة شجرة الدر فى تآمرها على قتل هذا السلطان فى سنة ١٢٥٧ م ، وعند هذه النقطة كانت السلطانة السابقة ما تزال تسيطر على السلطة الفعلية من وراء الستار . وتبلغ رواية مصطفى زيادة أوجها باغتيال أيبك وما اعقبه من اعتقال شجرة الدر واعدامها . ومن خلال أفعال شجرة الدر يصورها المؤلف على أنها امرأة مقتدرة ذات حنكة سياسية على الرغم من تضارب مصالحها مع مصالح المماليك .

R. Steven Humphreys, *From Saladin to the Mongols: the Ayyubids of Damascus 1193-1260*

ر. ستيفن همفري - من صلاح الدين إلى المغول : أمراء دمشق الأيوبيون ١١٩٣-١٢٦٠ م .

يستعين ستيفن همفرى بمجال واسع من المصادر الأولية التى تمكنه من تقديم نظرة مضيئة عن سيرة شجرة الدر السياسية . وتظهر السلطانة أول ما تظهر أثناء التحفظ على نجم الدين أيوب فى قلعة الكرك على يد ابن عمه الناصر داود لحاجة هذا الأخير إلى حليف فى صراعه مع دمشق ، وكما يشير ستيفن ، كان مع السلطان شجرة الدر وبيبرس . ثم يلخص ستيفن شتى الخطط التى كتمت بها شجرة الدروفخر الدين نبأ وفاة نجم الدين أيوب عن العالم الخارجى . وفى مواجهة الإنتصار على الصليبيين ومسألة الشرعية الأيوبية ، قرر المماليك أن تكون شجرة الدر زعيمتهم التالية . وهنا يبرز ستيفن نقطتين هامتين : الأولى أنه على الرغم مما كانت شجرة الدر تتمتع به من قدرات ، فإن ارتباطها بالأسرة الحاكمة الأيوبية هو الذي رفعها الى العرش ؛ والثانية ، وبالتضاد مع وجهات نظر الدارسين الآخرين ، فإن تنصيبها سلطانة كان مجرد اجراء مؤقت ؛ إذ لم يشأ

المماليك أن تصبح بلا وصى ، ولذلك نصّبوا أيبك لأنهم يستطيعون بسهولة التأثير فى قراراته السياسية . وبعد أن قلص ستيفن مسألة النفوذ السياسى لشجرة الدر على هذا النحو، فلا حاجة لديه لأن يذكر أمر الخليفة العباسى بتنحية شجرة الدر. ويقول حتى إن شجرة الدرلم يكن لها سطلة فعلية فى نهاية سيرتها ، إذ كان أيبك "قد تزوج فعلا " ابنة والى الموصل ، وإنما تصرفت شجرة الدر لمجرد حفظ ماء الوجه وليس بدافع تآمر سياسى . وبرغم ما أبداه بعض المسؤولين الرئيسيين من تحذيرات واعتراضات نفذ تآمرها واغتيل السلطان . وبعد مرور أسبوع ، تمرد مماليك أيبك واستولوا على السلطة لأنفسهم . وقام هؤلاء العسكر بصلب القتلة ، ورفعوا على بن أيبك إلى كرسى السلطنة ، وسلموا شجرة الدر إلى زوجة أيبك الأولى (أم على) التى ضربتها حتى الموت . ويصور ستيفن همفري شجرة الدر على أنها المرأة التى حكمت بحسب أهواء المماليك حتى عندما كانت فى أوج قوتها .

Syedah F. Sadeque's *Baybars I of Egypt*
سيدة ف . صديق ـ بيبرس الأول سلطان مصر

كما تناقش سيدة حكم شجرة الدر بالعلاقة بقوة المماليك المتزايدة خلال تلك الفترة . وتقيّم حكم شجرة الدرقائلة إنه كان قويا أثناء توليها السلطنة وأثناء زواجها ، غير أن المؤرخة تذكر أن تحركات أيبك فى المرحلة الأخيرة قضت على أساس قوتها . كما تبدأ المؤلفة بعزو الفضل للسلطانة فى حفاظها على الإستقرار السياسى فى مصر فى مواجهة خطرالكارثة الوشيكة التى كانت تصعد فى النيل متمثلة فى جيش لويس الصليبى . ثم تذكرها مرة أخرى بعد اعتلائها عرش مصر . وتقول سيدة صديق ببساطة أن "أمراء المماليك البحرية وضعوا شجرة الدر على العرش" . ولا تربط المؤلفة وضعها على العرش بمسألة الشرعية ، مشيرة إلى أن " أميرا أيوبيا ـ طفلا فى السادسة من عمره " نُصّب سلطانا مشاركا لأيبك . وقد فشلت المؤلفة فى الواقع فى توضيح السبب وراء تصرفات المماليك . وبعد

إشارتها تلك ، تدعى "أن السلطة الحقيقية بقيت مع شجرة الدر التى حكمت المملكة باسم الملكين المشاركين ، وبالتعاون مع كبار أمراء المماليك البحرية مثل أقطاي وبيبرس وبلابان" . لقد نبعت سلطة السلطانة من المماليك البحرية الذين شتتهم أيبك فيما بين عامي ١٢٥١ و ١٢٥٤م ببالغ الجهد. وتلخص المؤلفة الأحداث الأخيرة فى هذه الدراما بعبارة واحدة : "... قتل أيبك بيد مليكته شجرة الدر" . إن هذه الدراسة تركز على أهمية توازن المصادر (المسيحية والإسلامية) . وتقدم نظرة إجمالية من حيث النص ، كما تقـدم ملخصا جيدا ، غير أن قصة شجرة الدر ليست سوى الستارة الخلفيه لصعود بيبرس إلى السلطـة .

Abdul-Aziz Khowaiter, *Baibars the First: his Endeavors and Achievements*

عبد العزيز خويطر ــ بيبرس الأول: مجهوداته وإنجازاتـه

فى تصويرعهد شجرة الدر، يضع عبد العزيز خويطر المماليك فى مكان السيطرة الكاملة على السلطانة أثناء تربعها على عرش مصر. ورغم أن شجرة الدر أدارت حكومة البلاد بصورة جيّدة وفعّـالة بمساعدة القليل من المستشارين ، فإنهـا أُزيحت من السلطة بعد الإنقلاب المملوكى مباشرة تقريبا فى عملية متعددة الخطوات . كانت الخطوة الأولى زواجها من أيبك ، ثم نصّب المماليك موسى بن يوسف ــ وهو إبن حفيد السلطان الكامل ــ كحاكم مشارك ، وأخيرا تسبب قيام أيبك بتطهير المماليك البحرية فى القضاء على القاعدة التى ترتكز عليها سلطة شجرة الدر، والتى عن طريقها كانت تؤثر فى شؤون البلاط . ثم يجادل خويطرالمفهوم التقليدى وراء تآمر السلطانة على أيبك بسبب زواجه المزمع بإبنـة والى الموصل وعلى هذا النحو فإنه يقدم شجرة الدر على انها ضحية ثورة المماليك المستمرة . وعندما حاولت أن تقامر وتؤثر فى سياسات البلاط ،

أخطأت خطأ ً جسيما باغتيالها لأيبك . وفى هذه الرواية فإن المماليك هم الذين قرروا ، وليس علي ، تسليم السلطانة السابقة لزوجة أيبك الأولى لتقتلها ؛ وبذا يتخلصون من أداتهم التى جاوزبقاؤها الوقت المطلوب للإنتفاع بها . وكشأن همفرى ، يضع خويطر المماليك فى موضع السيطرة فى كل جانب من جوانب عهد شجرة الدر.

إن الدارسين الشرق أوسطيين ، شأنهم كشأن دارسى الحملات الصليبية ، يقدمون موجزاً مختصراً لحياة شجرة الدر . ومع ذلك ، ومع الوضع فى الإعتبارحقيقة أن دورالمرأة فى التاريخ وفى المجتمع قد عولج حتى العصر الحديث ، فإن هذا الإيجاز — برغم توقعه — لا يُحتمل . وربما نتوقع من النساء الدارسات اللاتى سيأتى الحديث عنهن أن يخصصوا مكاناً أكبر لدور شجرة الدر فى مسار الأحداث .

٥ - النساء المؤرخات

يضم التسجيل التاريخى حالات قليلة نسبيا من النساء اللاتى بَرعْنَ فى استخدام السلطة السياسية بصورة رسمية ، أو لعبن أدوارا قيادية فى المشهد السياسى . ومع ذلك ، تكشف هؤلاء النسوة الطبيعة الأساسية لسلطة النساء وكذلك الوسيلة الرئيسية للحصول على تلك السلطة . ولقد حققت النساء ، كشأن أغلب المواطنين الآخرين ، أهدافهن السياسية من خلال قنوات توصلهم إلى الصفوة الذين يعتبرون حجر الزاوية فى هيكل السلطة ، ومن شأن وضعهم الخاص أن يسهّل سبيل الوصول حتى عندما ينكرون على النساء الحصول على السلطة المطلقة .

وبالتعارض مع الروايات التاريخية التى وردت تفصيلاتها أعلاه ، نجد أن للنساء المؤرخات خططا دراسية مختلفة ، تنصب على تمجيد دور المرأة كقائد .

وهناك مؤلفتان ، سوزان ستافا وفاطمة ميرنيسى ، تضعان السلطانة فى بؤرة الأحداث ، وتركزان على حياتها وإنجازاتها ، وتقللان إلى أدنى حد أحداث الحملة الصليبية ودور الرجال المساعد من حولها . وتقول ستافا إن انجازات المرأة غالبا ما تتراجع إلى الخلفية لأجل خاطر الواقع الذي يعيشه الرجال ؛ كما تؤكد أن " قصة شجرة الدر إنما هى قصــة امرأة من البدايـة إلى النهاية ؛ والمواهب البارزة تعمل من خلال العملاء ، وتتحقق من خلال الأزمات ، وحتما تصاب بخيبـة الأمل بسبـب القانـون والتقاليـد والقـوة الغاشمة ... "

Susan J. Staffa, `Dimensions of Women's Power in Historic Cairo'

سوزان ج. ستافا ــ أبعاد سلطة النساء فى القاهرة التاريخية

تورد سوزان رواية مقتضبة عن حياة شجرة الدر ، وتفتتح روايتها بوفاة نجم الدين أيوب ودور شجرة الدر فى ضمان النصر الإسلامى على جيش لويس الصليبى فى المنصورة ، وما تبع ذلك من حكم شجرة الدر لثلاثة أشهر كوصية نيابة عن توران شاه ، وحكمها كأرملة لنجم الدين أيوب ، والاعتراف بشجاعتها وما أظهرته من اقتدار، وكأم خليـل ، وحكمها الفعلى من وراء الستار بعد زواجها من أيبك ، واغتيال أيبك ، واعتقالها وموتها . وتُظهر هذه المؤلفة أن بإمكان النساء أن ينجزن أحسن الإنجازات فى مناصب الدولة إذا أتيحت لهن الفرصة . ويلقى مقال ستافا الضوء على انجازات السلطانة فى مواجهة النظام التقليدى لحكم الرجال فى مصر. وتضع المؤلفة قائمة بإنجازات شجرة الدر، ثم تقدم كمّا كبيرا من التحليل ، بالنظر إلى التغطية القصيرة الواردة فى مقالها ، برغم إخفاقها فى تقديم مصادر محددة . والمسألة التى أثارتها ستافا يمكن تطبيقها على أية امرأة حاكمة قوية على مدى التاريخ الإسلامى . وطالما سمحت النساء للرجال بالإحتفاظ بالسلطة الإسمية ، أي اللقب الملكى ، سمح

الرجال للنساء بأن يحكمــن . وعندما عبرت شجرة الدرهذا الحد ، بدأ الخليفة ومجتمع الرجال ، وقد تحققوا من الخطر الذي يتهددهم ، يقلّصون سلطتها وبالتالى القاعدة التى تستند عليها قوتها .

Fatima Mernissi, *The Forgotten Queens of Islam*

فاطمة ميرنيسى ــ ملكات الإسلام المنسـيات

تسرد فاطمة أيضا انجازات السلطانة ، وتنتقدها فى نقاط معينـة . وتوفرمصـادر هذه المؤلفة ، التى تتضمن أغلب التواريخ العربية "الرسمية" ، أساسا جيداً لمناقشتها . فكما تؤكد فاطمة ، ذاع صيت شجرة الدر لما حققته من إنجازات عديدة بما فيها معالجتها للأزمة السابقة على الحملة الصليبية السادسة ، ووصايتها على البلاد نيابة عن توران شاه . وفضلا عن ذلك ، تذكر فاطمة عدة صفات أساسية كان من شأنها أن ساعدت شجرة الدر مساعدة قيّمة ، مثل القيـادة العسكرية العظيمة : "لقد حققت للمسلمين نصرا يتذكره الفرنسيون جيدا ، إذ أنها اجتثت شأفـه جيشهم فى الحملة الصليبية وأسرت مليكهـم لويس التاسع " . وتذكر هذه الرواية أن شجرة الدر كانت حتى بعد تخليها عن السلطة ما تزال تؤثر فى سياسات القصر لصالحها . وهكذا ، ومن خلال هذا المديح الكبير ، تؤيد فاطمة قدرة شجرة الدر على قيادة مصر فى هذه الفترة ، ومع ذلك ، تسارع المؤلفة إلى القول بأن ممارسات أيبك الزواجية المتعددة ، ورفض الخليفة العباسى الإعتراف بسلطنتها حكمت بفشل مزايا السلطانة السياسية . وقد عرقلت نوايا أيبك الزواجية شجرة الدر فى السيطرة عليه . وكما تؤكد فاطمة فإن وحدة الزوجة تعمل لصالح امرأة ما ، بينما تعدد الزوجات تساعد الرجال . وحقيقى أن السلطانة قد أحبت نجم الدين أيوب ، إلا أن زواجها من أيبك كان أمرا تمليه سلاسة الظروف ، ولذا كانت وحدانية الزوجة كابح سياسى يمكنها من

الإحتفاظ بالسلطان تحت السيطرة . وتعتبر فاطمة أن تخلى شجرة الدر عن السلطنة في المقابلة برغبة أيبك في التزوج مرة ثانية

"... أكثر من لفتة ولاء للخليفة المستعصم العباسى ... كان ذلك عملا محزنا يعكس ضعفها ، ومحاولة يائسة للفوز برضاه ..."

ولقد منحها المماليك السلطنة جزئيا بسبب أصولها العرقية وروابطها العائلية . ومن الناحية الأخرى ، فإن الخليفة المستعصم — فى تطبيقه للقرآن ومعارضته الشخصية لهذا الوضع — فاته الإعتراف بها على أنها أفضل مرشح ، وأحدث صدعا لدى المماليك من أجل خلعها من السلطنة من فورهم . وبرغم أن وصف فاطمة يكشف عن خطتها الدراسية التى وضعتها فى القرن العشرين ، فهى تميل إلى تبيان الحواجز المعرقلة للمرأة فى مصر المملوكية ، كما أنها تمتدح حياة شجرة الدر بوضوح يثير الدهشة نظرا للإفتقار الى العمق فى أغلب المصادر . وكشأن رواية ستافا ، فإن هذه النوعية من الروايات تفصل عملها عن باقى الروايات التى تتناول حياة شجرة الدر وسيرتها .

وعلى سبيل المثال ، يستغل أغلب مؤرخى الحملات الصليبية قصة شجرة الدر كستارة خلفية صغيرة للمواضيع التى يفضلون معالجتها . ويتباين هؤلاء المؤرخون فى تغطيتهم لحياة السلطانة وأفعالها . وليس هناك سوى المؤرخ ستيفن رانسيمان الذى يولى اهتماما بالمراحل الست لسيرتها ، بينما تنصب أغلب الروايات المذكورة هنا على مجرد المرحلة الأولى ، بحيث تُظهر دورشجرة الدر فى التحالف الذى أعقب وفاة زوجها نجم الدين أيوب . وفى تلك الروايات تتراوح النظرة إلى السلطانة من كونها متآمرة (ريتشارد) إلى كونها دمية مملوكية (سترابر) . كما أن التفاسير المتصلة بالمرحلة الثانية من سيرتها ، من الإنتصار على الصليبيين إلى تخلى السلطانة فى الثلاثين من يوليو ١٢٥٠ م تتعارض مع بعضها البعض ، إذ يصف ريلى سميث ، كشأن سترابر ، شجرة الدر على

أنها شخصية عاجزة ، لكنه يعزو إليها فضل الموافقة على معاهدة السلام مع لويس التاسع . كما يصف ريلى سميث كيف أنها حكمت بكفاءة بمفردها لثمانين يوما . ويرد وصف المرحلة الثالثة المتصلة بسنواتها الأخيرة (١٢٥٠- ١٢٥٧م) بصورة مختلفة فى كل رواية من الروايات ؛ كما أن المتحكم فى لعبة القط والفأر السياسية قد صُوّرت على نحو مختلف فى كل رواية من الروايات . فهل كان المتحكم هو أيبك أم شجرة الدر ؟ إن رواية رانسيمان تصور أيبك مسيطرا على زوجته فى شؤون البلاط بحيث جاء تآمرها كعمل من أعمال اليأس أكثر من كونـه محاولة لتعزيز سيطرتها . وفى تلك الروايات نجد أن أهداف المؤلف ونواياه تؤثر فى تغطيته لسيرة السلطانة . والمؤلفان زيادة ورانسيمان يعطيان القارئ نظرة معقدة عن تاريخ المماليك أثناء الحملات الصليبية ، وهو نهج يبرر إيراد نظرة كاملة عن السيرة السياسية لشجرة الدر. ويريد ستراير وجيب الإسهاب فى وصف الحكومة المصرية وهزيمة الصليبيين فى ابريل ١٢٥٠ م ، وبذا يركزان على مجرد المرحلتين الأوليين لا غير . وبالتعارض، فإن مناقشة ريلى سميث تمس بالكاد السلطانة والنظام المملوكى . ونجد مارشال وأرمسترونج يدرجانها فى روايتيـهما لمجرد تبيان فشل المصريين أمام جنود لويس . أما معلوف ، فإنه يركز على التأريخ العربى للحملات الصليبية ، ويضع نفسه فى معسكر مختلف بمدحـه للسلطانة ومنح القارئ صورة لسيرتها . وتمضى النساء المؤرخات ـ ستافا وفاطمة ـ إلى أبعد من ذلك فيصفن تلك الأحداث وما تحمله من مغزى للعالم الإسلامى ولمصرالأيوبية والمملوكية ولشجرة الدر نفسها . إن الدارستين تميزان عملهما بصورة مختلفة عن الدارسين الأخرين بما أوردتاه من وصف للجانب النسائى فى القصة . فمن الواضح أن ستافا تركز على قدرة المرأة على تحمل المسؤوليات السياسية فى مجتمع الرجال الكبير . كما تقدم رواية فاطمة نظرة نسائية للسلطة الملكية فى اسلام العصور الوسيطة وتتوسع فى الجدل بالكثير من الأدلة الداعمـة .

وجدير بالذكر فى هذا الإستعراض لروايات المؤرخين الغربيين ، القول بأن هناك مؤرخين أخرين يرون أن مصر حاولت صياغة

مصير جديد منفصل عن كل من الإمبراطورية العثمانية والقوى الإستعمارية الأوروبية ، وأن انجازات شجرة الدر قد ألهمت المصريين السعى نحو الإستقلال . وتوسع كتاب وطنيون ــ مثل على مبارك والأمير على وزينب فواز ــ فى ذكر وجهة النظر هذه فى أعمالهم ، وبهذه الطريقة أظهر بعض الدارسين ـ مثل قدرية حسين ومحمود بدوى وعمر رضا كحّالة والزريقلى وفؤاد أبو هاتر ـ أن صفات القيادة قد تجاوزت حدود الجنس والطبقة. ولا ينبغى لهذه الرابطة أن تدهشنا ، إذ أن النساء الفرنسيات قمن بتبنى صورة جان دارك فى عشرينات القرن العشرين لنفس الأسباب واستهدافا لنفس النتيجة . ويورد أبو هاترذلك فى كتابه "شجرة الدر وبيبرس ***Shagar el Dorr et Baibars*** " عندما أشار إلى شجرة الدر على أنها "جان دارك الإســـلام" .

ومع ذلك ، يظل السؤال بلا جواب : من هى شجرة الدر؟ وما هى إنجازاتها ؟ وذلك نظرا لتباين خطط العمل وتضارب الحقائق فى كل رواية . إن ما يميز هؤلاء الدارسين من تعقد وعمق فى التركيز على السلطانة يختلف بحسب ما يتصل بالمواضيع الخاصة بهم . إن مهمة كتابة ترجمة موثوق بها عن شجرة الدر لا تزال أمرا واجبا يبحث عن كاتـــبه .



الفصل السابـــع

♣♣♣♣♣

تســــــــاؤلات

♣♣♣♣♣

من الذى قتـل أيبـك ؟

هل قتلت شجـرة الدر أيبـك فعـلا ؟ ولماذا قتلتـه ؟

أهى مجرد الغيرة النسائية لأنه فكر فى الزواج من أخرى ؟

ألم تفكر ما سيكون حالها إذا ترملت ؟

ألم يسبق للخليفة العباسى أن رفضها على رأس الدولة ؟

هل كان باستطاعتها أن تصبح سلطانة مرة أخرى وتحكم مصر بعد رفض الخليفة وقاضى القضاة بل والشعب نفسه ؟

هل فعلا أرسلت إلى أحد أعداء أيبك ليحضر الى مصر وتتزوجه ويصبح سلطانا كما جاء فى بعض التواريخ ؟ من هو ؟ وما اسمـه ؟ وما سبب معاداتـه لأيبك ؟

وهل كان بإمكانها أن تجعل منه سلطانا ؟

وإذا كان ذلك كذلك ولم يحضر ذلك الشخص المجهول لخوفه أو لأي سبب آخر ، ألم يكن فى مصر نفسها أعداء لأيبك ؟ فلماذا تذهب شجرة الدربعيدا ويقع اختيارها على عدو لأيبك من خارج مصر؟ ألم يكن فى أمراء المماليك من يقم بهذه المهمـة ؟

ألم يذكر المؤرخون إن أمراء المماليك والجيش انقسموا على أنفسهم بعد مصرع أيبك بين مؤيد لها ومعارض؟

وأثناء اغتيال أيبك ، تضرب السلطانة زوجها وتحك عينيه بالصابون . ثم يروى معلوف أن شجرة الدر ، بعد أن شاهدها ابن أيبك وهى تحمل سلاح الجريمة ، تعثرت وارتطمت رأسها بالأرض الرخامية على نحو كاد يودى بحياتها فى فرارها من المماليك الذين كانوا يلاحقونهـا. (معلوف).

هل صحيح أن على بن أيبك شاهدها وفى يدها (سلاح الجريمة) وهى تجرى هاربة من المماليك فى حجرات القصر؟
ما هو سلاح الجريمة ؟ الصابون ؟ أم القباقيب ؟
ومن الذى استعمل هذا السلاح ؟ شجرة الدر أم الخادمات أم الخصيان ؟
وهل كان المماليك يطاردون شجرة الدر لحظة وقوع الجريمة؟
وكيف عرف المماليك الذين كانوا يلاحقونها أنها قاتلة ؟
هل كانوا بجوار الحمام أثناء اغتيال أيبك ؟
ولماذا تعثرت شجرة الدر وهى تجرى على الأرض (الرخامية)؟
ولماذا لم تلق بسلاح الجريمة (الصابون) من يدها ؟

عزالدين أيبك :كيف قُتـل ؟

هل قتلـه خدم شجرة الدر أم خادماتها ؟

لماذا يختلف المؤرخون حول الخدم والخادمات ؟

وفى ١٥ إبريل أعدت العدة كي يقتله الخصيان التابعون له فى حمامه . وكاد مقتله أن يثير حربا أهلية ، إذ نادى بعض المماليك بالإنتقام من الأرملة وأيدها آخرون كرمز للشرعية . وفى نهاية الأمر انتص أعداؤها ؛ وفى ٢ مايو ١٢٥٧م ضُربت شجرة الدر حتى الموت بينما نُصب ابن أيبك سلطانا وكان ابن خمسة عشر ربيعا ، على أن الشاب لم يكن يمثل أسرة حاكمة لها احترامها ولا يتمتع هو نفسه بشخصية القائد (سير ستيفن رانسيمان: تاريخ الحملات الصليبية)

هل القباقيب تقتل؟ خاصة إذا كان القتلـة من النساء ؟

لماذا لم يقاومهن أيبك ؟

كم كان عددهن ؟ ثلاثة ؟ خمسة ؟ عشرة ؟
هل يتسع الحمام لأي عدد من الأشخـاص؟
أليس فى استطاعة رجل أن يدافع عن نفسه مع حفنة من النسوة؟
ولماذا اختارت شجرة الدر القباقيب الخشبية ؟
لماذا لم تلجـأ إلى السم مثلا ؟ وهوأكثر ضمانا للنتائج من القباقيب !
هل سمعت الخدم أمر شجرة الدر بالتوقف عن الضرب ؟
لماذا تواصل الضرب حتى الموت ؟

ويلاحظ ديزموند ستيوارت أن شجرة الدر حاولت إيقاف الخدم عن مواصلة ضرب أيبك قبل فوات الأوان ، لكن الخدم واصلوا الضـرب إلى أن مات . وحاولت إخفاء تلك الفعلة ، بل وتتزوج زعيم الممـاليك الجديـد

أليس هذا دليل على أن شجرة الدر لم تفكر فى القتل ؟
أليس يكفى أن تعاقب زوجها أيبك فقط ؟

هل كشف أحد الخدم ما انتوت عليه شجرة الدر من الضرب فقط لطرف ثالث ؟

أليس محتملا أن الطرف الثالث أغدق على الخدم لمواصلة الضرب حتى الموت ؟

هل هناك سبب يدعو الخدم إلى عصيان أوامر شجرة الدر؟

عزالدين أيبك : لماذا اختار إبنة لؤلؤ والى الموصل ؟

لماذا اختار أيبك ابنة لؤلؤ لتكون زوجتة الثانية ؟
هل افتتن بإبنة لؤلؤ والى الموصل ؟

وما علاقة أيبك بوالى الموصل ؟

هل كان ينوى زواجا سياسيـا ؟

متى قابل والى الموصل ؟ وأين ؟ ولماذا ؟

ألم يكن الأحرى به مصاهرة الأيوبيين فى سوريا للمصالحة ؟

لماذا والى الموصل التى خربها المغول بالفعل سنة ١٢٥٩م ؟

هل شاهد إبنة والى الموصل وأعجب بجمالها ؟ وأين حدث ذلك ؟ هل حدثه أحد بأنها بارعة الجمال ؟ ومن أخبره بذلك ؟ وفى أية مناسبة؟

أين كان المماليـــــــك ؟

هل تمت هذه المؤامرة بغير علم أحد من المماليك ؟

ألم يكن لشجرة الدر مؤازرين من المماليك يساعدونها ؟

أليس من المحتمل أن المماليك هم الذين تآمروا على قتل أيبك ، وألصقوا التهمة بشجرة الدر؟

وإذا كانت شجرة الدر قد تآمرت لقتل أيبك ، مع من تآمرت ؟

وماذا كانت الخطة بعد إغتياله ؟

هل تآمرت شجرة الدرمع زعيم المماليك على قتل أيبك والزواج منه ليصبح سلطانا ثم تخلى عنها ؟

هل وشى بها ؟

ومن كان زعيم المماليك وقت المؤامرة ؟

هل كان بيبرس ؟ أم قطـز ؟ أم أقطـاي ؟ أم شخصية مجهولة ؟

هل كان للمماليك زعيم أصلا ؟ أم أن الأقوى منهم هو الزعيم ؟

أم علـى ، ما حكايتها ؟ وما علاقتها بالمماليك ؟

لماذا انتظرت أم على سبع سنوات لتنتقم ؟

ألم يكن باستطاعتها الإنتقام قبل مقتل زوجها السلطان أيبك؟

هل كانت أم على من بين المتآمرين؟

هل كان ثمن اشتراكها فى المؤامرة تنصيب ابنها (على) سلطانا ؟

هل تكفى ثلاثة أيام بعد مصرع أيبك لكى تخطط أم على قتل شجرة الدر بنفس الطريقة؟

ولماذا قام المماليك باحتجاز شجرة الدر فى أحد أبراج القلعة ؟

لماذا سلموها للسلطان الجديد على وأمه ، أم على ، بهذه السرعة ؟

هل كانوا ثلاثة أيام ؟ أم خمسة عشر يوما ؟

وفى ١٥ إبريل أعدت العدة كي يقتله الخصيان التابعون له فى حمامه . وكاد مقتله أن يثير حربا أهلية ، إذ نادى بعض المماليك بالإنتقام من الأرملة وليدها آخرون كرمز للشرعية . وفى نهاية الأمر انتصر أعداؤها ؛ وفى ٢ مايو ١٢٥٧م ضُربت شجرة الدر حتى الموت (رانسيمان)

من هم أمراء المماليك الذين أيّدوا شجرة الدر؟

أين كان أمراء المماليك ؟ وما كان دورهم ؟

ولم يكن أيبك بالقائد الماهر المحنك ليكون على مستوى الزعامة ، فترك أمور الدولة تديرها شجرة الدر . وكانت هناك غلظة فى تصرفاته وخشونة فى أفعاله ، خاصة مع أمراء المماليك . وعلى سبيل المثال ، قتل فى اليوم الثامن عشر من سبتمبر ١٢٥٤م أحد الأمراء بعدما أخضع هذا الأمير

تمردا قام به الأعراب فى مصر الوسطى ، مما جعل المماليك يشعرون بالخطر ، فهرب الكثيرمنهم إلى سوريا ومن بينهم بيبرس.

أليس من المحتمل أن يكون قتلة أيبك من هؤلاء الذين خافو غلظته وخشونته وهربوا خوفا منه ؟

وأخيرا : هل حاول المؤرخون دراسة تلك الملابسات أوبعضها ؟

ومن يتصدي لدراسة جادة للإجابة على هذه التساؤلات التى ربما تنصف قاهرة الملوك ومنقذة مصر؟

خلاصة آراء المؤرخين :

(أصابع الإتهام تتجه نحو المماليك)

يكاد يُجمع المؤرخون ، الذين تناولتهم هذه الدراسة ، على الدور الرئيسى والخطير للمماليك الذين استغلوا شجرة الدر:

♣ جوزيف ستراير:

... وفى واقع الأمر يذكر ستراير ضمنا أن شجرة الدرلم يكن لها أية سلطة فى السياسة المصرية على أي وجه بسبب الإنقلاب الذي قام به المماليك . ويوضح فى مؤلفه أن المماليك إنما احتفظوا بالوضع السياسى لشجرة الدر طالما أتاح لهم ذلك الإفادة منها ...

♣ سير ستيفن رانسيمان :

... ويقول رانسيمان إن شجرة الدر كانت ما تزال فى حاجة الى مؤازرة المماليك لكى تحكم ...

... لقد كان وضعها فى الصورة السياسية يتعلق بصلتها بالسلطانين نجم الدين أيوب وتوران شاه ، وما أن قتلت زوجها الثانى السلطان عز الدين أيبك فى لحظـة يأس حتى انقلب عليها أغلب المماليك للإطاحـة بها . وبعد أيام ثلاثة لقيت السلطانة مصيرها . إن رواية رانسيمان تركز على مؤازرة المماليك باعتبارها العامل الرئيسى وراء نجاح شجرة الدر وفشلها ....

♣ هـ. أ. ر. جيـــــب :

... يورد جيب شجرة الدر فى وضعها السلطانى بعد انتصار المماليك وكشأن ستراير، يؤكد جيب أنه ما أن شعر المماليك بأن الخطر يتهدد وضعهم حتى فضّلوا الإبقاء على وضعهم والتخلى عن السلطة الملكية ...

♣ جوناثـــان سميث :

..... يرسم جوناثان فى كتابه المذكور صورة صراع حاد على السلطة حدث بعد وفاة السلطان نجم الدين أيوب سنة ١٢٤٩ م ، توحى بأن سلطة شجرة الدر كانت ترتكز على التحول الذى طرأ على مصالح المماليك ليس إلا. وبعد اغتيال توران شاه نادى المماليك بشجرة الدر، محظية الصالح السابقة ، "ملكـة" ....

... يرسم صورة شجرة الدرعلى أنها مجرد دميـة مملوكية ....

♣ أمـين معلـوف :

....لكنها فى النهاية تحطمت على الشاطئ بفعل القوى السياسية التى لم تستطع السيطرة عليها ....

♣ ديزمونـد ستيوارت:

.... ويلاحظ ديزموند ستيوارت أن شجرة الدرحاولت إيقاف الخدم عن مواصلة ضرب أيبك قبل فوات الأوان ، لكن الخدم واصلوا الضرب إلى أن مات .....

♣ روبرت إيرويـن :

.... وعلى هذا النحو يرسم إيروين شجرة الدر كشخصية قـوية فى مجابهة الحملة الصليبية ، ومع ذلك تصبح فى هذه الرواية ضحية الثورة السياسية التى ساعدت هى نفسها على إيجادها ....

♣ ديزموند ستيوارت :

.... ويلاحظ ديزموند ستيوارت أن شجرة الدرحاولت إيقاف الخدم عن مواصلة ضرب أيبك قبل فوات الأوان ، لكن الخدم واصلوا الضرب إلى أن مات ....

....فإن تنصيبها سلطانة لم يكن سوى مجرد اجراء مؤقـت ؛ إذ لم يشأ المماليك قط أن تصبح بلا وصى ، ولذلك نصّبوا أيبك لأنهم يستطيعون بسهولة التأثير فى قراراته السياسية ....

♣ ستيفن همفري :

.... ويصور ستيفن همفري شجرة الدر على أنها المرأة التى حكمت بحسب أهواء المماليك حتى عندما كانت فى أوج قوتها ....

♣ سيدة صديق :

...وتقول سيدة صديق ببساطة أن "أمراء المماليك البحرية وضعوا شجرة الدر على العرش" ....

.... لقد نبعت سلطة السلطانة من المماليك البحرية الذين شنتهم أيبك فيما بين عامي ١٢٥١ و١٢٥٤م ....

.... قصة شجرة الدر ليست سوى الستارة الخلفية لصعود بيبرس إلى السلطة .....

♣ عبد العزيز خويطر:

.... فى تصويرعهد شجرة الدر، يضع عبد العزيز خويطر المماليك فى مكان السيطرة الكاملة على السلطانة أثناء تربعها على عرش مصر...

... فإنها أُزيحت من السلطة بعد الإنقلاب المملوكى مباشرة تقريبا فى عملية متعددة الخطوات ....

... وعلى هذا النحو فإنه يقدم شجرة الدر على انها ضحية ثورة المماليك المستمرة . وعندما حاولت أن تقامر وتؤثر فى سياسات البلاط ، أخطأت خطأ جسيما باغتيالها لأيبك وفى هذه

الرواية فإن المماليك هم الذين قرروا ، وليس علي ، تسليم السلطانة السابقة لزوجة أيبك الأولى لتقتلها ؛ وبذا يتخلصون من أداتهم التى جاوزبقاؤها الوقت المطلوب للإنتفاع بها . وكشأن همفرى ، يضع خويطر المماليك فى موضع السيطرة فى كل جانب من جوانب عهد شجرة الدر....

الخلاصـة ،

أو ..

النتيجة الأقرب إلى المنطـق

يمكن القول إن المماليك تآمروا وقتلوا أيبك وألصقوا الجريمة بشجرة الدر وسلموها لأم على ، ليتخلصـوا منـه ومنهـا .

♣♣♣♣♣

المحتويــات

الفصــــل **صفحــة**

المؤلـــف

مترجم بالأمم المتحدة ، وعضو اتحاد كتاب مصر .
له تراجم ومؤلفـات منها :
* المخدرات ، حقائق اجتماعية وطبية ونفسية
* تاريخ النقود
* رجل الأقدار (مجموعة قصصية)
* موسوعة تاريخ الحملات الصليبية .
* أمضى أكثر من ٢٥ عاما فى تأليف موسوعة الأديان الثلاثة (اليهودية ، المسيحية ، الإسلام) بالإنجليزية والعربية.
* شرع فى تأليف سلسلة (المماليك المفترى عليهم)

هذا الكتـــاب

* هذا الكتاب هو الأول فى سلسلة المماليك المفترى عليهم : شجرة الدر (قاهرة الملوك ومنقذة مصر) وفيه بحث شامل للتواريخ والأماكن والصور، ونهاية الأسرة الحاكمة الأيوبية . كما يضم الكتاب خلفية رائعـة لعصر شجرة الدر وأسر الملك القديس لويس التاسع ملك فرنسا فى المنصورة . ويضم الكتاب أيضا فصلا كاملا عن مؤرخى الحقبة المملوكية والصليبية الغربيين .

* ويورد المؤلف شتى التساؤلات التى قد تبرئ فى النهاية شجرة الدرومنقذة مصر من جريمة القتل . ولأهمية العصر المملوكى وقادته العظام يكفى الإستشهاد بمقولة المؤرخ المنصف رانسيمان :

> كان النصر المملوكى فى عين جالوت إنقاذا للإسلام من أخطر تهديد كان عليه مواجهته . ولو قُدّر للمغول التوغل داخل مصر لما بقيت هناك دولة إسلامية عظيمة فى العالم شرقى مراكش .

ويدعو المؤلف إلى دراسة جادة للحقبة المملوكية ، وينادى بتجلية صورة المماليك العظام حتى تتخذهم الأجيال الصاعدة مثلا أعلى وقدوة تحتذى لتحرير الأراضى التى اغتصبها الصليبيون الجدد .

> كما يلقى المؤلف فى ساحة المؤرخين مفاجأة غير مسبوقة حول شجرة الـــدر : قاهرة الموك ومنقذة مصر.